المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية
في إقليم شرق الدلتا

د. عبد الرحمن محمد البكرى

ملخـــص:

تعد الحملة الفرنسية علي مصر مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي حلقة من حلقات الصراع الدائر بين فرنسا وانجلترا ، والتي كانتا تتنافسان علي الاستعمار منذ القرن السابع عشر الميلادي واستمر خلال القرن الثامن عشر الميلادي، ثم أخذ الصراع طوراً جديداً بعد سقوط الملكية وقيام الجمهورية سنة ١٧٩٢م وظهور بونابرت Bonaparte على مسرح الأحداث عام ١٧٩٣م .

اتجهت أطماع بونابرت إلى فتح مصر عقب انتصاراته في حروب إيطاليا ، ليتخذها قاعدة عسكرية يصل منها إلى الأملاك الإنجليزية في الهند ، فتحركت أولى جيوشه من مياه مالطه في يوم ١٩ يونيه ١٧٩٨م حتى وصلت غرب مدينة الإسكندرية يوم ٢ يوليو ١٧٩٨م واحتلوها في ذلك اليوم ، وزحف بونابرت على القاهرة بطريق دمنهور واحتلوا مدينة رشيد ، ودخلوا القاهرة بعد معارك مع الجيش المملوكي انتهت بفراره أمام الفرنسين ثم دخل بونابرت القاهرة والذى أعطى أوامره إلى القاده بالسيطره على مصر بأكملها .

وحينما قرر الفرنسين الإستيلاء على إقليم شرق الدلتا المتمثل في محافظات ومديريات كبرى مثل (المنصورة – الغربية – دمياط – المنوفية – الشرقية) لم يقدروا جيداً حجم المقاومة حيث اشتعلت هنا وهناك بالتدريج فى قرى ومدن هذا الاقليم ، ويبدو أن صدى هزيمة أجدادهم للويس التاسع بالمنصورة كانت لا تزال ماثله في عقول أحفاد هذا الإقليم جيلاً بعد جيل .

امتازت مقاومة إقليم شرق الدلتا بأنها أخذت شكل ثورات مستمرة، لعبت فيها قرى ونجوع ومدن هذا الإقليم دوراً عظيماً في حركة النضال والمقاومة الشعبية ، كان بطلها الفلاح المصري البسيط ، كما نجحت الزعامات الشعبية المخلصة في إقليم شرق الدلتا ، أمثال (حسن طوبار – أبوقورة – على العديسي- والأمير مصطفى)، الدخول مع الفرنسين في معارك ضارية هددت قوة الحملة الفرنسية ، نتج عنها قتل العديد من الجنود الفرنسين. على صعيد اٰخر شكلت المقاومة الشعبيه المحليه فى ريف مصر عامه وإقليم شرق الدلتا خاصه، ركيزه مهمه على قيام ثورتى القاهره الأولى والثانيه ، ونتيجة ذلك لم تدم الحملة الفرنسية على مصر أكثر من ثلاث سنوات فقط.

احتوت الدراسه على تعدد في المصادر والمراجع التاريخية ، وتعد المصادر الفرنسية أحد الأركان المهمة التي قامت عليه الدراسة ، والتي حصل عليها من مذكرات منشورة وغير منشورة ووثائق عن دور المقاومة في إقليم شرق الدلتا، من خلال التواصل مع المكتبة الوطنية الفرنسية على شبكة الإنترنت ، وهذه الوثائق مسجلة فى دار الوثائق القومية تحت عنوان مذكرات الزعماء ، كما احتوت الدراسة أيضاً علي العديد من المصادر والمراجع العربية والأخرى فرنسية ، بالإضافة إلى مجموعه من الدوريات العربية والفرنسية أيضاً.

Abstract:

The French campaign against Egypt at the beginning of the nineteenth century AD was one of the episodes of the conflict between France and England, which had been competing for colonialism since the seventeenth century AD and continued during the eighteenth century. Then the conflict took a new phase after the fall of the monarchy and the establishment of the Republic in 1792 Bonaparte Bonaparte's appearance in the theater in 1793.

Bonaparte's ambitions to open Egypt after his victories in the wars of Italy, to take a military base to reach the English property in India, the first of his armies from the waters of Malta on June 19, 1798 until it arrived to the west of Alexandria on July 2, 1798 and occupied that day, Bonaparte marched on Cairo by Damanhour Road and occupied the city of Rashid. They entered Cairo after battles with the Mamluk army, which ended with his escape to the Francs and then entered Bonaparte, Cairo, which gave orders to the leadership to control all of Egypt.

When the Franciscans decided to take over the Eastern Delta region, which is the provinces and major districts such as Mansoura, Gharbia, Damietta, Menoufia, and Sharqia, they did not appreciate the size of the resistance as it gradually caught fire in the villages and cities of this region. Is still in the minds of the descendants of this region generation after generation.

The resistance of the East Delta region was characterized by the fact that it took the form of continuous revolutions, in which the villages, towns and cities of this region played a great role in the movement of popular struggle and resistance. Its hero was the simple Egyptian farmer. The loyal popular leaders in the East Delta region, such as Hasan Tubar, Al-Adisi and Prince Mustafa.

On another level, the local resistance in the countryside of Egypt in general and the East Delta region in particular, was the focus of the revolution on the first and second revolution, and that will destroy the French campaign on Egypt more than three years only.

The study contains a number of sources and historical references, and French sources are one of the important pillars of the study, which was obtained from published and unpublished notes and documents on the role of resistance in the East Delta region, through communication with the French National Library on the Internet, and these documents (In), and there are many sources and references Arabic and French.

المقدمــة :

تعد الحملة الفرنسية علي مصر مع بدايات القرن التاسع عشر الميلادي، حلقة من حلقات الصراع الدائر بين فرنسا وانجلترا ،والتي كانتا تتنافسان علي الاستعمار منذ القرن السابع عشر الميلادي واستمر خلال القرن الثامن عشر

الميلادي، ثم أخذ الصراع طوراً جديداً بعد سقوط الملكية وقيام الجمهورية سنة ١٧٩٢م وظهور بونابرت Bonaparte على مسرح الأحداث عام ١٧٩٣م.

اتجهت أطماع بونابرت Bonaparte إلى فتح مصر عقب انتصاراته في حروب إيطاليا، حيث بدأ يفكر في تمهيد الطريق لإنفاذ حملة عسكرية كبيرة في البحر المتوسط واحتلال مصر، ليتخذها قاعدة عسكرية يصل منها إلى الأملاك الإنجليزية في الهند، فتحركت أولى جيوشه من مياه مالطه في يوم ١٩ يونيه ١٧٩٨م حتى وصلت جنود الحملة غرب مدينة الإسكندرية يوم ٢ يوليو سنة ١٧٩٨م ،وزحفوا على المدينة واحتلوها في ذلك اليوم ،وبعد ذلك أخذ بونابرت Bonaparte يزحف على القاهرة بطريق دمنهور حيث استطاع الفرنسيون احتلال مدينة رشيد ودخول القاهرة ،بعد معارك مع الجيش المملوكي إنتهت بفراره أمام الفرنسين ثم دخل بونابرت Bonaparte القاهرة وأعطى أوامره إلى القاده بالسيطره على مصر بأكملها .

وحينما قرر الفرنسين الاستيلاء على إقليم شرق الدلتا المتمثل في محافظات ومديريات كبرى مثل (المنصورة – الغربية – دمياط – المنوفية – الشرقية)، لم يقدروا جيداً حجم المقاومة حيث اشتعلت هنا وهناك بالتدريج فى قرى ومدن هذا الاقليم ،ويبدو أن صدى هزيمة أجدادهم للويس التاسع بالمنصورة كانت لا تزال ماثله في عقول أحفاد هذا الإقليم جيلاً بعد جيل .

إمتازت مقاومة إقليم شرق الدلتا بأنها أخذت شكل ثورات مستمرة، لعبت فيها قرى ونجوع ومدن هذا الإقليم دوراً عظيماً في حركة النضال والمقاومة الشعبية ، كان بطلها الفلاح المصري البسيط الذي نجح في الدفاع بكل شجاعة وبسالة عن الأرض والعرض بالرغم من إمكاناته البسيطه .

كما نجحت الزعامات الشعبية المخلصة في إقليم شرق الدلتا ، أمثال (حسن طوبار – أبوقورة – على العديسي– والأمير مصطفى)، الدخول مع الفرنسين في معارك ضارية هددت قوة الحملة الفرنسية ، نتج عنها قتل العديد من الجنود الفرنسين وكانت الزعامة الشعبية عنواناً بارزاً للمقاومة ومثلاً يحتذى به في التضحيه والكفاح، ورفض كل محاولات الخضوع والإستسلام.

على صعيد اٰخر شكلت المقاومة الشعبيه المحليه فى ريف مصر عامه وإقليم شرق الدلتا خاصه، ركيزه مهمه على قيام ثورتى القاهره الأولى والثانيه ، ونتيجة ذلك لم تدم الحملة الفرنسية على مصر أكثر من ثلاث سنوات فقط.

جاء أهمية موضوع الدراسة كونه أحد أهم المواضيع الذي ركز على إبراز الدور الوطني والبطولات الشعبيه لإقليم شرق الدلتا بالتحديد،ضد الحملة الفرنسيه من ١٧٩٨م– ١٨٠١م، ويتميز هذا الاقليم بأهميته الإنتاجية العالية من ناحيه وأهميته الإستراتيجية من ناحية أخرى، خاصة من خلال وجود ممر مائي كبير

متمثل فى بحيرة المنزلة والغنيه بالانتاج السمكى ،و المتصله بالبحر المتوسط عن طريق فتحات تسمى بواغيز ، ووجود ميناء دمياط المؤثر في النشاط الإقتصادي الداخلي والخارجي لمصر، ووجود قطاع عريض من الإنتاج الزراعي في الدقهلية والشرقية والصناعي في المحلة وطنطا.

احتوت الدراسه على تعدد في المصادر والمراجع التاريخية ، التي ساهمت في توفير مادة موضوع الدراسة ، وتعد المصادر الفرنسية أحد الأركان المهمة التي قامت عليه الدراسة ، واعتمد عليها الباحث كعمود فقري في الدراسة ، والتي حصل عليها من مذكرات منشورة وغير منشورة ووثائق عن دور المقاومة في إقليم شرق الدلتا، من خلال التواصل مع المكتبة الوطنية الفرنسية على شبكة الإنترنت، وهذه الوثائق مسجلة فى دار الوثائق القومية تحت عنوان مذكرات الزعماء، والتي زودت الباحث بمعلومات لم تكن متاحه في مكتبات مصر،كما احتوت الدراسة أيضاً علي العديد من المصادر والمراجع العربية والأخرى فرنسية، بالاضافه إلى مجموعه من الدوريات العربية والفرنسية أيضاً.

قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر:

لم تكن فكرة الغزو الفرنسي لمصر وليدة العصور الحديثة بل كانت وليدة العصور الوسطى، من خلال الحروب الصليبية على مصر وعدم تحقيق الحملة الفرنسية أهدافها بقيادة لويس التاسع، ثم تجددت الفكرة إلى ما قبل الثورة الفرنسية إلى زمن الملك لويس الرابع عشر، الذي عرض عليه لابينز Lapeniz وهو فيلسوف وعالم ألماني، على عدم محاربة أوربا المسيحية وقدم مشروعاً لغزو مصر، وكتب يقول "هذا هو أضخم مشروع يمكن تصوره والأكثر سهولة في تنفيذه إن مصر من بين جميع بقاع العالم هي الأفضل موقعاً من أجل السيطرة على الدنيا وعلى البحار وأنها خالية من أي دفاع ولا تنتظر سوى وصول جيش تحرير لكي تنهض."[1] كان لابينز Lapeniz يرى أن إستيلاء فرنسا على مصر يمكنها من القضاء على نفوذ هولندا التجاري في جزر الهند الشرقية، وتحويل هذه الجزر إلى طريق مصر لمصلحة فرنسا، إلا أن الملك لويس الرابع عشر لم يقتنع بتلك الفكرة وإختار شن الحرب في أوروبا.[2]

تجددت الفكرة مرة أخرى في عهد لويس السادس عشر، والتي ارتأت حكومته قبل الثورة الفرنسية ببضع سنوات أن تحتل مصر غنيمة لها من ميراث الدولة العثمانية، وفي هذا الصدد قال سارتين sartine وزير البحرية أنذاك في مجلس الوزراء "إن إحتلال مصر هو الطريقة الوحيدة لحفظ تجارتنا في البحر المتوسط ومتى توطدت قدمنا في مصر، صرنا أصحاب السيادة على البحر الأحمر وصرنا نستطيع أن نهاجم إنجلترا

---

(1) روبير سوليه: مصر ولع فرنسي، ترجمة لطيف فرج، مكتبة الأسرة، ١٩٩٩، ص٢٥.

(2) عبد الغفار محمد حسين: بناء الدولة الحديثة في مصر، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص٤٩.

في الهند أو ننشئ في تلك البلاد متاجر ننافس بها الإنجليز"[٣] وفي عام ١٧٩٣ م بعد إعدام الملك لويس السادس عشر، عينت فرنسا قنصلاً لها في مصر المسيو شارل مجالون* Charles magallon وهو من كبار التجار الذين كانوا يدعون لإحتلال مصر[٤]

وضع مجالون magallon تقريراً مفصلاً في عام ١٧٩٨م بحث فيه الموضوع من كل جوانبه، فقال " إن إحتلال مصر يمكن أن يتم بعدد قليل من الرجال ٢٠ إلى ٢٥ ألف مقاتل، ولا أظن أن الباب العالي سيغضب لهذا العمل غضباً يؤثر في علاقتنا الوديه معه لأنه في الواقع لا سلطة فعلية له مع المماليك "، وختم مجالون magallon تقريره بالكلام عن أهمية إحتلال مصر بالنسبة لإنجلترا وتجارتها في الشرق والهند و أكد أن إحتلال الهند وطرد الانجليز منها يصبح سهلاً بعد الإستيلاء على مصر.[٥]

كانت لتقارير و كتابات رجال السياسة الفرنسين الذين خدموا في القسطنطينية أو القاهرة، ثم أولئك الرحالة الذين زاروا مصر أكبر الأثر عن كشف القناع عن حالة الإمبراطورية العثمانية، وقد أقبل الفرنسين على دراسة هذه التقارير ودراسة هذه الكتب بشغف عظيم عندما تجددت الرغبة في الإستعمار.[٦]

وبعد قيام الثورة الفرنسية في ١٤ يوليو ١٧٨٩م بإقتحام سجن الباستيل وتعد أول ثورة إجتماعية في أوروبا، تجددت فكرة غزو مصر مرة أخرى في الأيام الأولى للثورة الفرنسية، وكانت حكومة الإدارة تفضل ضرب إنجلترا في عقر دارها بدلاً من ضرب مصالحها في الهند عن طريق مصر، إلا أن بونابرت Bonaparte يرى صعوبة الدخول في معركة بحرية مع إنجلترا ومن ثم فقد إنتصر مشروع غزو مصر الذي كان يحلم به بونابرت Bonaparte، منذ أن كان ملازماً بل كان يسجل يومياته عن تاريخ مصر والشرق بدقة ودون عبارة تقول " المجد كله يأتي من الشرق مثل

---

(٣) أحمد عوض: فتح مصر الحديث،مطبعه مصر، القاهرة، ١٩٢٥م، ص٦٨

*شارل مجالون: تاجر فرنسي أقام بمصر أكثر من ٢٠عاماً وكان يشرف على مصالح مواطنيه في القاهرة بعد إنتقال القنصلية الفرنسية إلي الاسكندرية عام ١٧٧٧م ثم أصبح قنصلاً عاماً لبلاده عام ١٧٦٣م وقد ردد مجالون في رسائله إلى المسئولين في فرنسا الشكوي من سوء معاملة المماليك للتجار الفرنسيين. انظر أحمد حسين الصاوي: فجر الصحافة في مصر، دراسة في إعلام الحملة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٥، ص١٧.

(٤) موسوعة تاريخ مصر: ص٨٧٧-٨٧٨

(٥) خوري واسماعيل: السياسة الدولية في الشرق العربي، ج١، ص٦٦ – ٦٧

(٦) عصام محمد شبارو: المقاومة الشعبية المصرية للإحتلال الفرنسي و الغزو البريطاني، دار التضامن، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٧

الشمس"[٧] إستقر الرأي العام الفرنسي على ضرورة الإستيلاء على مصر، وكانت بريطانيا ترقب بعين القلق تطور فرنسا وإزدياد قوتها[٨].

أُسندت هذه الحملة إلى بونابرت Bonaparte الذي اصطحب عدد كبير من كبار القواد و الجنود، وعدد من العلماء في الهندسة، الرياضة، الطبيعة، الفلك، الرسم، الموسيقى، الشعر، والمعمار، وأحضر بونابرت Bonaparte كذلك عدد من الألآت والأدوات العلمية، ومطبعتين إحداهما عربية والأخرى فرنسية.[٩]

أبحر بونابرت Bonaparte من ميناء طولون متوجهاً إلى مصر، وفي الطريق إستولت الحملة على مالطة[١٠]. حتى وصلت الحملة إلي الاسكندرية في أواخر يونية سنة ١٧٩٨م وأخذت الإسكندرية تستعد لمقاومة الغزو، إلا أن بونابرت Bonaparte تمكن من الإستيلاء على الإسكندرية ومن هناك إنتشرت أنباء الحملة ووسائلها التعسفية في أنحاء البلاد، فما كاد بونابرت Bonaparte يتحرك من الإسكنرية إلى القاهرة حتى واجهه ألواناً من المقاومة.[١١]

تحركات الفرنسين للسيطره على اقليم شرق الدلتا

بعد انسحاب إبراهيم بك بقواته إلى الشرقيه ومنها إلى الشام ،وتراجع مراد بك إلى الصعيد ليحتمى به ويناوش الفرنسين منه ،أصبحت القاهره والدلتا خاليه من أية قوات نظاميه يمكنها التصدى لحملة بونابرت Bonaparte ،ولقد تصور للقائد الفرنسى سهولة السيطره على باقى أقاليم مصر.[١٢]

وجه بونابرت Bonaparte منشور باللغة العربيه من القاهره ،يدعو فيه الأهالى للتعاون مع الفرنسين ويحذرهم من مغبة معارضتهم حيث قال "على جميع القرى الواقعة فى دائره قريبه بثلاث ساعات عن المواضع التى يمر بها الفرنسين، فواجب عليها أن ترسل وكلاء عنها تظهر الولاء والطاعه لقائد العسكر الفرنسى إلا تحرق بالنار[١٣].

بعد هذا التحذير وبعد هزيمه القوات النظاميه فى مصر، بدأ بونابرت Bonaparte يخطط لنشر قواته فى أنحاء الدلتا المختلفه فعين لكل منطقه قائداً ، وأوفد هؤلاء القاده على رأس

---

(٧) ريمون فلاور: مصر من قدوم نابليون حتى رحيل عبد الناصر، ترجمة سيد أحمد علي الناصري، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢، ص٢٧.

(٨) حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٣٨، ص٧٩.

(٩) أحمد عوض: المرجع السابق،ص٨٢ – ٨٥.

(١٠) محمد فؤاد شكري: عبد الله جاك مينو، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٥٢، ص٨٤ – ٨٥

(١١) عبد العزيز رفاعي: أصول النضال الثوري القومي، القاهرة، ٢٠٠٨، ص١٤ –١٥

(12) A. Hugo: France Militaire Histoire Des Armées Françaises De Terre Et De Mer De 1792 à 1837, Tome 2, Paris, 1838m, P171.

(13) Edward Cust: Annals Of The Wars Of The Eighteenth Century, London, 1860, P231.

قوات عسكريه من الخيالة ، والمشاه للسيطرة على أنحاء البلاد المختلفه .(١٤)

كانت المشكله الأساسية التى تواجه قوات بونابرت Bonaparte ، هى نقص الجياد اللازمه لفرق الخيالة فإتجه إلى جمعها من قرى الدلتا ،وكان أسوأ ما توقعه قادة الحملة إمتناع الفلاحين المصريين عن إمداد القوات بالخيول ، التى تحتاج إليها لكنهم لم يتوقعوا أبداً ان تلقى هذه القوات مقاومه مسلحة من المصريين.(١٥)

وجه بونابرت Bonaparte رساله إلى قواته المتوجهين إلى الدلتا تضمنت تعليماته، بخصوص أسلوب التعامل مع المصريين جاء فيها " أصدروا أوامركم بأن تقدم لكم كل قرية من قرى الدلتا جوادين من خير الجياد ، وأيما قريه لم تفعل ضربت عليها غرامه ألف ريال وأن هذه هى الطريقة الفعالة للحصول على خمسمائه من الجياد ،وتسد من حاجتكم وعليكم عند طلب الخيل أن تطلبوا كذلك عدتها ، من الركاب واللجام لتتوافر لكم فى الحال فرقه من الخياله فإنها الوسيله الوحيده لإخضاع هذه البلاد" .(١٦) لكن واقع الحال كان غير ما توقع بونابرت Bonaparte و فوجئ بأنه أمام إقليم صعب الميراث وواجهت الحملة الفرنسية ثورات عنيفه هنا وهناك داخل قرى ونجوع إقليم شرق الدلتا.

ثورة الشرقية:

بعد انسحاب إبراهيم بك بقواتـــه عقـــب إنتصار الفرنسين في معركة إمبابة إلـــى جهـــة بلبيس عاصـــمة الشـــرقية ، وجـــد بونـــابرت Bonaparte خطراً يتهدد مركز الفرنســـين مـــن وجود هذه القوة في شرق الدلتا ، وعلى مســـافة ٤٠كم من القاهرة فعزم على مطاردة إبراهيم بك ليخلص له الوجه البحري ووصول قافلة الحـــج ليكتسب نفوس المصريين والعالم الإسلامي، ثـــم ليقنع أشراف مكة وعرب الحجـــاز والـــيمن أن وجود الفرنسين في مصر لا يقطع سبل الحـــج الذي هو مصدر رزقهم. (١٧)

بدأت طلائع الجيش الفرنسي تزحـــف من القاهرة فإحتلوا الخانكة وفيها وثب الشـــعب على جنود الجيش الفرنســـي وإســـتولوا علـــى سلاحهم وقتلوهم فانسحب ٦٠٠ جندي الي المرج وطلبوا النجدات ثم كروا عائدين إلى الخانكة فإذا هي خالية فاشعلوا فيها النار.(١٨)

توالـــت التقـــارير علـــى بونـــابرت Bonaparte وكل الدلائل تدل على أنه لابد مـــن قوة كبيرة لإخضـــاع هـــذه الجهـــات ، وســـار بونابرت Bonaparte بنفسه إلى بلبيس ثم أسرع إلى الصالحية متعقب بعض فلول المماليـــك دون أن يصحب سلاحه الثقيل معه ،وكاد بونـــابرت

(14) J. Dénain : Histoire De L'Expédition Française En Egypte, Volume 2, Paris ,1830m, P45.

(15) Correspondance De Napoléon. Tome 5, Paris, 1858,p198

(16) Courier De L'Egypte: N8,p55

(17) Revue Retrospective: Contenant Des Memoires Et Documents Authentiques Inedits Et Originaux, Tome II, Paris, 1838,p18

(18) J.B. Salgues - L. Fayolle: Mémoire Pour Servir à L'Histoire De France Sous Le Gouvernement De Napoléon Buonaparte Et Pendant L'absence De La Maison De Bourbon, Volume 2, Paris, 1814,p177.

Bonaparte وقواته أن 'تدمر في هذه الملحمة التي استعمل فيها السلاح الأبيض ،لولا أن ادركته النجدات و'جرح من الفرنسين عدد كبير من بينهم ضباط كبار، وترك بونابرت Bonaparte هذه القوات التأديبية لقواده وعاد إلى القاهرة بعد أن أمر بأن تكون بلبيس مركزاً عسكرياً رئيسياً.(١٩)

وفرة القوات الفرنسية لم تمنع الاهالي من تكوين قوات فدائية ، أخذت تغير على المعسكرات راكبة خيولها ، وألزمت قوات العدو بأن تحتمي ببيوت بلبيس نفسها حتى قبل المدد ،وبدأت المدفعية تعمل عملها في رد جموع الفرسان المصرين وبلغ عنف المعارك أن نُهب المعسكر الفرنسي الرئيسي أكثر من مرة ، وعلى الرغم من أوامر بونابرت Bonaparte بإستعمال منتهى الشدة في أخذ الرهائن وإعدامها وإحراق القرى فإن مقاومة الشرقية حملت قائد بلبيس أن يفاوض زعماء الثورة في الصلح ، ولكن لم يقبل أحداً منه أقل من إخلاء المنطقة كلها ، و إستمرت الإضطرابات في الشرقية وخاصة بعد إندلاع ثورة القاهرة الأولى.(٢٠)

ثورة أمير الحج فى الشرقيه فى مارس ١٧٩٩م:

كانت وظيفه إمارة الحج من الوظائف الكبرى فى القطر المصرى، وكان لا يتقلدها إلا كبار الأمراء من المماليك وعندما جاءت الحملة الفرنسية كان أمير الحج صالح بك من أتباع مراد بك فأسند بونابرت Bonaparte هذه الوظيفه لمصطفى بك لكى يؤكد للمصريين أنه محافظ على تقاليدهم الدينيه وعادتهم الاسلاميه .(٢١)

وعندما بدأ بونابرت Bonaparte حملته على سوريا خُيل لمصطفى بك أنه يستطيع بما له من مركز إمارة الحج أن يثير على الفرنسين حرباً ، فنادى الجهاد وامتد لهيب الثورة إلى مديرتى الشرقيه والمنصوره.(٢٢)

وكانت مظالم الفرنسين من دوافع اشتعال الثورة ،ذلك أنهم أخذوا يفرضون الإتاوات على البلاد ، وأخذ جنودهم يصادرون الجمال والحمير والماشيه من القرى، وأوشكت الثورة أن تتحول الى معركه عامه تهدد الجيش الفرنسى فى وقت إنهاك بونابرت Bonaparte فى الحمله على سوريا. (٢٣)

أُعطيت الاوامر إلى الجنرال لانوس Lanous على رأس قوه مؤلفه من ستمائه جندى إلى الشرقيه ،التى كانت منبع الثورة ففر أمير الحج إلى دمياط ، وبحث لانوس Lanous عن القرى التى اشتركت فى الثورة وأحرقها لتكون عبره لغيرها(٢٤)

(19) Correspondance De Napoléon:opcit.p133.

(20) J.Michel de Niello Sargy: Mémoires Secrets Et Inédits Pour Servir à L'Histoire Contemporaine, Sur L'Expédition D'Égypte ,Tome 1, Paris, 1825m,p.

(٢١) أحمد عوض: المرجع السابق، ص١٧١.

(٢٢)عصام محمد شبارو :المرجع السابق، ص١٨١

(23) Correspondance De Napoléon:op.cit.p291

(24) ibid.p51

ثورة المنوفيه معركه "غمرين وتتا "أغسطس ١٧٩٨م:

شهدت المنوفية أثناء الحملة الفرنسية على مصر عده معارك دارت بين الفرنسين والأهالى، وساعدت هذه المعارك على تعطيل زحف الجيش الفرنسى، وهددت طريق مواصلاتها إلى القاهره ،وقد عين بونابرت Bonaparte زاتيوتشك Zatuochk قائداً للمنوفية ، ومن أهم هذه المعارك التى تصدت للفرنسين فى المنوفيه ،معركه غمرين وتتا فى أغسطس ١٧٩٨م، وهما من قرى مركز منوف مما اضطر بونابرت Bonaparte بعمل أسطول مسلح بالمدافع على النيل للحراسه ،وإقامة عده حصون، وعين عليها القائد دومارتان Domartaine قائد المدفعيه فقتلوه هو وأربعه عشر من جنوده سنه ١٧٩٩م[٢٥]

ولقد بدأت المعركة عندما اصطدم بهما الضابط فوجيير Voguier الذى عينه بونابرت Bonaparteحاكماً على الغربية ، فثار أهل القريتين عليه أثناء مروره بالمنوفيه فى طريقه إلى الغربية ، وحملوا السلاح وأغلقوا الأبواب في وجه الجنود فطلب فوجيير المساعدة من زايوتشك Zatuochk الذى كان مرابطاً في منوف، وتعاونت القوتان الفرنسيتان على إخضاع القريتين المصريتين بعدما دافع أهلهما دفاعاً شديداً ،وكانت النساء تشاركن الرجال في قتال الفرنسين ، وهذا من أبلغ ما يذكر عن استبسال شعب في الدفاع عن كيانه ،استولى الفرنسيون على غمرين ثم تتا وأضرموا النار في القريتين عقابا لهما على الثورة وقتل من المصريين من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ بينهم عدد من النساء[٢٦].

مأساة الحملة الفرنسية في الغربية :

أولاً: ثورة طنطا:

كانت طنطا أكبر بلاد الدلتا من الناحية التجارية ،وقد بلغ عدد سكانها في ذلك الوقت عشرة آلاف نسمة ، وقد بدأت الثورة في أوائل تشرين الأول ١٧٩٨ م ، و أجمع أهلها على الإمتناع عن دفع أي ضريبة أو غرامة تفرض عليهم، لكن الجنرال فوجيير Voguier وجد أن روح الهياج والتمرد، تقوى وتشتد فأرسل إليها كتيبة من الجنود، بقيادة الكولونيل لوفيفرLoviver وعهد إليه إعتقال زعماء المدينة.[٢٧]

كانت حفلات المولد الأحمدى قائمة عندما أخذ القائد الفرنسي أربعة من مشايخ مسجد الأحمدي رهائن، وأركبهم السفينة التي تبحر بهم إلى القاهرة، فثارت المدينة وهاجمت القوات الفرنسية بالبنادق والحراب، ودارت معركة شديدة دامت أربع ساعات وبلغت خسائر المصريين ثلاثمائة قتيل وجريح.[٢٨]

ثم جرد بونابرت Bonaparte حملة بقيادة الجنرال لانوس Lanous الذي عين قائدا

(25)Carent De La Sapretache: Revue Militaire Retrospectiv , Septieme volume , Paris, 1899,p102.

(٢٦) دار الهلال: الفرنسيون فستق للأكل لا للحـــرب ، بتاريخ ١ أغسطس ١٩٦٨م،ص٨.

(٢٧) دار الهلال: المرجع السابق،ص٨

(٢٨) المرجع نفسه: ص٩

للمنوفية خلفا للجنرال زايوتشك Zatuochk فسار بجنوده وأوقع بكثير من القرى المحاذية للنيل وبلغ طنطا دون أن يلقى مقاومة و أمكنه أن يحصل على الضرائب وشتت قوات العربان التي كانت تساند الثوار لكنه لم يستطع ان يقهرها او يتغلب عليها ثم عاد إلى منوف ولم تهدأ الإضطرابات في المنوفية والغربية وكان الأهالى دائما يتحينون الفرص للثورة ضد الإحتلال الفرنسي.(٢٩)

اشتدت الثورة فى طنطا ووجد بونابرت Bonaparte أنه أخطأ فى التعامل مع المولد الأحمدى، حيث شبه بونابرت Bonaparte هذا الإحتفال بمكة المكرمة ، ولكى يطفئ بونابرت Bonaparte نار الثورة فى طنطا قام بإصدار مرسوم بتاريخ السادس من سبتمبر ١٧٩٨م قال فيه "على الجنود الفرنسين المتواجدين فى طنطا إحترامهم الكامل لمولد الأحمدى ، حيث يعد من أهم الاحتفالات الدينيه هناك، ولابد من حماية المولد بفرقة عسكرية فرنسية ونحن نقدر كل المقدسات الاسلامية فى مصر ونحترمها".(٣٠)

ثانياً: معركة سنباط :

كانت مهمة الضابط دوجا Duga أن يكتشف الجهات التي عزم على تجريد الحملة عليها قبل أن يغامر فيها وكانت بلدة سنباط – مركز زفتى الأن – من القرى التي شاركت بلاد الدقهلية في الثورة فأتخذها دوجا هدف له ،وهى إن كانت في مديرية الغربية إلا أنه رأى أن يبدأ بمهاجمتها لسهولة الوصول إليها ،بريق النيل ،وكانت أوامر بونابرت Bonaparte تقضي بإحراق هذه البلدة ،وكان الجنرال مورا Moraقائداً للقليوبية مكلفاً معاونة الضابط دوجا Duga في إخضاع إقليم المنصورة، فإنتقل من بنها إلى ميت غمر في أواخر أغسطس ١٧٩٨م لمعاقبة العرب النازلين في تلك الجهات وبخاصة في دنديط – من بلاد مركز ميت غمر– ممن توجهت عليهم تهمة الإشتراك في واقعة المنصورة، وكان منوطا به كذلك تجريد الأهالي من السلاح على أنه لم يستطع إنفاذ هذه المهمة وكتب إلى نابليون في ٤ سبتمبر يسأله العدول عن هذه المهمة الشاقة ويقول في خطابه: " إني أعتقد أن سياسة تجريد الأهالى من السلاح طريقة ضارة وغير حكيمة، إذ أرى أن العرب المزارعين مسلحون وتسليحهم مفيد لأنهم يحمون البلاد من سطوات البدو الرحل ويحفظون الأمن في هذه الجهات، وصعب من الأن إلى وقت لا يزال بعيداً أن نسلبهم السلاح دون أن نوقع الحرج في صدورهم، وندفعهم إلى الثورة كما حدث في المديريات الأخرى، لذلك أعتقد أنكم ترون ما أراه في الانتظار بهم حتى يستقر نظام الحكم الجديد ،وما هو الان خطأ يكون غداً صواباً" هاجم الجنرال مورا Mora في شهر سبتمبر قوة من العرب في دنديط بالقرب من ميت غمر فهزمهم وشتت جمعهم بعد أن قتل بعضهم وجرح رئيسهم واستولى منهم على ٢٠٠٠ رأس من الغنم أما في سنباط فقد أنفذ

(29)Adrien Pascal: Les Bulletins De La Grande Armée, Tome 2, paris, 1841,p305.

(30) Correspondance De Napoléon:op.cit.p339

الجنرال دوجـــا Duga إلـــي فردييـــهVerdier لمعاقبة العرب النـــازلين بهـــا فغـــادر فردييـــه المنصورة يوم ١٢ سبتمبر بطريق النيـــل فـــي ٥٥٠ جنديا فالتقى على مقربة من سنباط بقـــوة من العرب فهزمهم و اســـتولى علـــى خيـــامهم وماشيتهم ومتاعهم غير أن العرب تمكنوا مـــن الافلات فلم يقعوا في أيـــدى الفرنســـيين ولاذوا بالتلال القائمة حول سنباط وأرادوا أن يقـــاوموا القوة الفرنسية لكنهم نكصـــوا أمامهـــا و ألقـــوا بأنفسهم في النيل وذهبوا يسبحون ونجا منهم من نجا وعادت القوة الفرنسية إلى المنصورة.[٣١]

ثالثاً: معركه ميت غمر ودنديط:

تجددت الإضطرابات في منطقة ميـــت غمر ودنديط وميت الفرماوي في شهر أكتـــوبر سنة ١٧٩٨، وباتت المواصلات النيلية في فرع دمياط مهددة، فعهد بونـــابرتBonaparte إلـــى الضابط مورا Mora ولانوس Lanous بالتعاون على إخماد الثورة في تلـــك المنطقـــة ، إلتقـــى القائدان بالنيل عند بنها وسارت قواتهمـــا مـــن الجنود بالمراكب قاصدين إلـــى ميـــت غمـــر، فأرسوا إلى شاطئ النيل بالقرب منها وســـاروا قاصدين مهاجمة الثوار، الـــذين احتشـــدوا فـــي دنديط، وكان الجنرال مورا Mora يتولى قيـــادة المهمة ولانوسLanous يقود الميســـرة فســـار الجنود الفرنسين بنظامهم الحربي لمهاجمة الثوار في معقلهم ،وكان السير متعذر لأن الثوار قطعوا جسور الترع فغمرت المياه الأراضـــي ووحـــل الجنود في الطرق والمستنقعات ،ولمـــا بلغـــت جموعهم دنديط انسحب منها الثوار إلـــى ميـــت الفرماوي، وهناك امتنعوا وكان معهم مـــدفعان فقاوموا هجوم الفرنسين مقاومـــة شـــديدة ،ثـــم اضطروا على الإرتداد عن القرية فاستولى عليها الفرنسيون وعلى المدفعين الـــذين كانـــا بهـــا، وإعتصم الثوار بالتلال القريبة منهـــا فتعقـــبهم الفرنسيون و أجلوهم عنها ثم إستمر الثوار فـــي الإنسحاب حتى عجز الفرنسيون عن متابعتهم لما لحقهم من الإعياء، ولما غمر الأرض من ميـــاه الفيضان فرجعوا إدراكهم إلى ميت غمر.[٣٢]

وتعد معركة ميت غمر واحدة من المعارك العنيفة ، التي خاضها بدو الدرنه ضد الفرنسيين فكان بدو الدرنه يقطنون قرية دنوهيا ،التي كانت الفيضانات تحيطها من كل جانب مهددين الفرنسين بعمليات القرصنه للسفن الفرنسية في النيل ، وقطع الطرق فأمر بونابرت كل من الجنرال مورا ولانوس بالتوجه نحو ميت غمر، فبلغاها في الثامن من سبتمبر ١٧٩٨م وقاموا بإطلاق النيران على بدو الدرنه، مما أدى الى إنهاك قوتهم فراحوا يهربون من هول نيران المعركه ،حتى غمرتهم المياه إلي الأحذية وسقط عدد كبير من جمالهم وعتادهم في أيدي الفرنسين.[٣٣]

---

(٣١) عبدالرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، ط٣، مكتبـــة النهضـــة المصرية، القاهرة، ١٩٤٧م. ٢٧٦.

(٣٢) المرجع نفسه: ص٢٧٧.

(٣٣) جوزيف ماري مواريه : مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية ، ترجمة كامليا صبحي ، المجلس الاعلـــى للثقافة، القاهرة، ص٧٤.

الفتك بالحاميه الفرنسيه بالمنصوره :

لقى الفرنسيون عناءاً كبيراً في إخضاع المنصورة ودمياط، وساعد الفيضان على انتشار حركة المقاومة التي بدأها بالفعل الثوار في تلك الجهات(٣٤). فلم تمر أيام كثيرة على الحملة الفرنسية بقيادة فيال Vial على المنصورة ودمياط، إلا وكانت المقاومة قد دبرت أمرها بإيعاز من مشايخ القرى، الذين خلقوا إتصالات سريعة ومباشرة بينهم فى البلاد والقري المجاورة، أمثال: الأمير مصطفى شيخ بلدة القباب الكبرى، وعلي العديسي شيخ بلده محلة دمنة* أحد أهم المحرضين لواقعة المنصورة، و الشيخ علي منصور أبو قورة** شيخ بلدة ميت العامل، لتدبير الهجوم وكيفية التصدي ومقاومة الإحتلال الفرنسي، والحيلولة دون إستقرار سلطة الفرنسيين في المنصورة والقرى الريفية المجاورة لها، ونتج عن تلك الإتصالات اتفاق بين أهالي المنصورة والبلاد المجاورة بالفتك بالجنود الفرنسيين في المنصورة، وكان اتفاقهم يوم السوق العام لمدينة المنصورة(٣٥).

وفي صباح يوم الخميس الموافق العاشر من أغسطس ١٧٩٨م، إستغل أهالي المنصورة والبلاد المجاورة فرصة السوق العام لمدينة المنصورة، وجاء الأهالي كالعادة للبيع والشراء، واختلط بهم المقاومون الثوار، واتفقوا على القضاء على الجنود الفرنسيين، ونادت المدينة كلها رجالاً ونساءاً بالثورة، وكان للنساء دور في حث الرجال على أن يثوروا ضد الفرنسيين، وتوافدت أعداد كبيرة غير مألوفة في السوق، ولما شعر الجنود الفرنسيون بالخطر تحصنوا في معسكرهم، فحاصره الثائرون وهجموا عليهم، وأضرموا النار في المعسكر، فلم يستطع الفرنسيون المقاومة، فأسرعوا للهرب من هول النيران، واتجهوا إلى السفن مسرعين، وألقى بعض الجنود الفرنسيين أنفسهم في القوارب الراسية على النيل محاولين الهرب، يستغيثون بأصحاب المراكب لنقلهم بعيداً، فأبى رجال السفن أن يحملوهم، فاضطروا لمواصلة الهرب براً تجاه دمياط ، ولكن الثوار قطعوا عليهم الطريق، وقتلوهم عن أخرهم إلا جندياً واحداً، وكان من الناجين أيضاً خلال هذه الأحداث زوجة أحد الضباط الفرنسيين وابنتها حيث نجح

(٣٤) حسن صبحي: اليقظة القومية الكبرى، دار المعارف، ١٩٦٥م، ص٢١.

*بلدة القباب الكبرى وبلدة محلة دمنه من بلاد مركز دكرنس التابعة للمنصورة، وهى واقعة على البحر الصغير بحر أشمون قديماً. للمزيد إنظر عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص٢٨٠.

**الشيخ علي منصور أبو قورة: ينتمي إلى عائلة أبو قورة، التي تنتمي إلى القبائل البدوية المتوطنة في الدقهلية، وكان من أبرز رجال العائلة في القرن الثامن عشر، وقد قاوم الحملة الفرنسية فيعد من أحد المحركين لمقاومة الفرنسيين بالمنصورة. رضا أسعد شريف: أعيان الريف المصري في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م.، ص٢٥٨- ٢٦٠.

(٣٥) علي بركات: رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م، ص٥٤.

رجال المقاومة في أسرهما فأبقوا عليهما، ولم يمسوهما بسوء ويقول ريبو Ribo: "إن الفتاة قد إشتراها شيخ العرب أبو قورة، من أعيان ميت العامل، وتزوج بها*، فمكثت عنده حتى وفاته في عام ١٨٠٨م، وظلت قائمة على تربية أولادها حافظة لعهده من بعد وفاته"(٣٦).

وكتب مورشون Morchone أحد جنود فرقة الفرسان، والوحيد الذي بقى على قيد الحياة من الحامية الفرنسية بالمنصورة، تقريراً إلى لوجيه logée، يروى له ما حدث فيقول: "ترك القائد فيال Vial أثناء مروره بالمنصورة ١٢٠ رجلاً، وفي اليوم التالي لرحيل فيال Vial اغتال الأهالي والثوار ثلاثة من جنود الحامية، رجموا واحداً منهم وهو يقف في نوبة حراسته، والثاني وهو يأتي بالحساء، والثالث وهو عائد من مكان حراسته، ومن ذلك الوقت تحصنا في البيت الذي اخترناه ثكنة لنا، وبعد يومين في حوالي الساعة الثامنة صباحًا أحاط بالثكنة عدد كبير من المسلمين، يحملون مختلف الأسلحة، وحاول أحدهم أن يشعل النار في البيت، ولكن أحد جنود الفرسان قتله، فحاولوا بعد ذلك هدم البيت، وإستمر القتال إلى الرابعة مساءاً، وعندها خرجنا من ذلك البيت الذي فقدنا فيه ثمانية رجال، وبينما نحن سائرون في شوارع المدينة لنغادرها، كانت الطلقات تأتينا بإستمرار من نوافذ المنازل، فنرد عليها على قدر ما نستطيع، فلما وصلنا إلى الخلاء طاردنا هؤلاء الثوار وظلوا يطلقون علينا النار، وجرى بعضهم إلى القرى البعيدة في طلب التعزيزات، وفي أثناء تقهقرنا أخترقت رصاصة فخذي الأيسر، وفي

*أيد كلوت بك في كتابه لمحه عن تاريخ مصـــر هـــذه الواقعة ويقول: "إنه سمع بنبأ هذه الواقعة حينما زار دار أبي قورة، بميت العامل من بلاد مركـــز أجـــا، سنة ١٨٣٤م أي بعد أكثر من خمس وثلاثين ســـنه من الواقعة، وقابل زوجة أبي قورة الفرنسية وابنتها، وقال يصف هذه المقابلة وقد أحسن ابنهـــا لقـــائي، وأكرم مثواي، ولما عرف إنني فرنسي الجنس ذكر لي والدته وقال إنها فرنسية، فكاشفته رغبتـــي فـــي لقائها، وعندما قابلتها تلقتني محييه باللغة الفرنســـية، وتبينت أنها إيطالية الجنس، وعلمت منها أنها ولدت بمدينة البندقية، وأن والدها كان تاجر قبعات إســـمه بارترلي، وأن والدتها كانت تسمى مرجريـــت، وأن إسمها جوليا، وأن العربان سبوها وهى خارجة مـــن المنصورة أثناء هجوم الثوار على الحامية الفرنسية هناك، إذ أركبوها جوادا، وإنطلقوا بها حتى بلغـــوا بها في المساء داراً كبيرة، التقت فيها برجل يغطيـــه من الرأس إلى القدمين حرام أبيض، وأن هذا الرجل بذل لها من مظاهر العطف مـــالا يوصـــف، وأنـــه جردها من ثيابها الأوربيه، ليلبسها بدلا منهـــا ثوبـــا شرقيا فضفاضا، ثم سلمها من الحللى والجواهر مـــا قيمته ٦٠٠ كيس أي ما يعادل مائة ألـــف فرنـــك، وجعل في خدمتها عددا كبيرا من العبيد والجواري، وذلك الرجل هو الزعيم أبو قورة الذي كان مشهورا بالشوكة والجاه، ولقد رزقت منه غلاماً وحيداً ولمـــا مات أكرهت على التزوج باخيه فلم تجد منـــه مـــا كانت تلقاه من أخيه من حســـن الرعايـــة وجميـــل العطف. للمزيد انظر أ.ب.كلوت بك: لمحة عامـــة إلى مصر، تعريب محمد مسعود، ج٢، مطبعة أبـــو الهول، القاهرة، د.ت. ص ١٧٢.

(٣٦) عبد الرحمن الرافعي: المرجع الســـابق، ص٢٧٢-٢٧٣.نقلاً عن ريبو.

الفجر بقى منا على قيد الحياة خمسة وعشرون أو ثلاثون جنديًا، ومازال العدو يطاردنا وإذا فرغ رصاصنا فقد دافعنا عن أنفسنا بالسلاح الأبيض، وفضل الجرحى وعددهم عشرة أن يغرقوا أنفسهم على أن يقعوا في قبضة العدو، فلما لم يبق منا غير خمسة عشر ألقى حشد من الفلاحين الهائجين أنفسهم علينا، وجردونا من ثيابنا، وقتلونا كلنا بالشوم، وألقيت بنفسي في النيل عرياناً لأنتحر غرقاً، ولما كنت أعرف السباحة، فقد تغلبت غريزة حب الحياة على رغبة الإنتحار ووصلت إلى الضفة المقابلة، ورحت أسير دون هدف، فرأيت سبعة فرسان من المسلمين يدنون مني فالقيت بنفسي في النيل ثانية ولكني لاحظت أن اثنين منهم يشيران إليا بالمجئ عدت إلى الشاطئ، فأطلق أحدهما النار على رأسي ولكن الرصاصة لم تنطلق، وقال الأخر شيئا معناه الإبقاء على حياتي ثم سلمني إلى فلاحين مسلمين، فأوثقا يدي وقاداني إلى قرية، وأنا أمشي على طريق كله شوك آلامني جداً لأنني كنت حافيا مجروحاً، وفي القرية فك الأهالي وثاقي، واعتنوا بي، وأطعموني، وترفقوا بي كثيراً، وظلت على هذا الحال حتى عثرت عليا دورية فرنسية تمر بقريتهم"[٣٧].

لم يهدأ حسن طوبار في تهديد قوات الفرنسيين، وخلق لهم موقفاً صعبًا في منطقة إقليم شرق الدلتا، وكانت معظم التقارير التي أوفدت إلى بونابرت Bonaparte عن إقليم المنزلة ودمياط والمنصورة، تفيد بأن حسن طوبار هو محرك المقاومة الشعبية ضد الفرنسيين في هذه الجهات، وكان بونابرت Bonaparte لا يعلم بما حدث للجنود الفرنسيين في المنصورة وقتئذ[٣٨].

أشعلت هذه الواقعة نار الثورة والهياج في البلاد المجاورة، وكادت الثورة وحركات المقاومة التي تزداد إنتشاراً يوماً بعد يوم وتستفحل ويتسع مداها، لولا وصول دوجا Dugua الذي عينه بونابرت Bonaparte قائدًا على مديرية المنصورة، وإعطائه سلطات يستطيع بها تنفيذ تعليماته، وعلي أن يكون فيال Vial قائداً فقط على مديرية دمياط، وتحرك دوجا Dugua على رأس قوة من الجنود، قوامها ثلاثة آلاف جندي إلى المنصورة، وعندما وصل دوجا Dugua يوم ١٨ أغسطس ١٧٩٨م جنوب المنصورة، علم بكارثة الجنود الفرنسيين فكانت لها وقع سئ على نفسه، ولكن دوجا Dugua كان معروفاً عنه بين زملائه بالأناه والحكمة، وحسن السياسة، فتدارك الموقف في ألا يتسرع بإتخاذ أي قرار إلا بعد التحقيق في الواقعة، وإستعمل حكمته في إعادة النظام في المدينة، وأراد التحقق من المعتدين حتى لا يأخذ بريئاً بمذنب، ودب الذعر والخوف في الأهالي، وتوقع أهل المدينة إنتقاماً شديداً مما إضطر الكثير منهم إلى الهرب، خوفاً من إتهامهم في أحداث الفتك بالجنود

(٣٧) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م، ص١٥١ – ١٥٢.

(٣٨) عبد العزيز رفاعي: المرجع السابق، ص٢١.

الفرنسيين حتى أصبحت البلد شبه خاوية إلا القليل منهم(٣٩).

ومن ناحية أخرى توقع أعيان المنصورة الإنتقام منهم، فأسرعوا إلى قاضِ المنصورة وقدموا له رسالة يبرءون أنفسهم من تهمة الإعتداء على الجنود الفرنسيين، وأشاروا إلى الفلاحين والأعراب من البلاد المجاورة، هم الذين جاءوا واقتحموا المدينة وقاموا بالهجوم، وإبادة الحامية الفرنسية، وطلبوا من القاضي الذهاب إلى القاهرة خصيصاً ليدافع عنهم بإسم أهل المنصورة أمام بونابرت Bonaparte، فلما علم بونابرت Bonaparte بما حدث لجنوده، ووصلته رسالة أهالي المنصورة إشتد غيظه مما حدث، وبعث برسالة إلى دوجا Dugua، يطلب منه فيها عقاب أهالي المنصورة عقاباً شديداً، ويأمره بقتل تسعة أو عشرة من أعيانها، كما طلب منه أخذ رهائن من كل قرية إشترك أهلها في الإعتداء على الجنود، ثم طلب منه إحراق القري التي يرى أنها أكثر القرى إعتداءًا على الجنود الفرنسيين(٤٠).

ويتضح مما سبق أن بونابرت Bonaparte كان شديد الغضب، وإتخذ العديد من القرارات النابعة من تأثير هول الحادثه عليه، كما أن موقف أعيان المنصورة بإبعاد التهمة عنهم وأنهم ليسوا على صلة بما حدث للجنود الفرنسيين يحسب ضدهم، فهو موقف غير وطني، ويبدو أن حرصهم على نشاطهم الإقتصادي جعلهم يسلكون هذا الموقف.

كما حاول أيضاً الأهالي المتواجدون بعد الحادثة بمدينة المنصورة، الذهاب إلى دوجا Dugua ليعتذروا له عن الحادثه، وقالوا: "إنهم لم يفعلوا ذلك، وإنما الفاعل الحقيقي بعض الفلاحين، وبعض العرب، وكذلك البلاد المجاورة، ونظراً لكثرتهم يوم السوق العام لم يستطيعوا منعهم"(٤١). ويبدو أن شعور الأهالي بخطورة الموقف جعلهم يتظاهرون بالسكينة لأن حادثة إبادة الجنود الفرنسيين كبيرة وبالتالي توقع الأهالي أن يكون الأخذ بالثار من قبل الفرنسيين عنوانه الهلاك والتدمير.

تدارك دوجا Dugua الموقف، وتحقق في الواقعة، وقد تبين له من خلال هذه التحقيقات ثلاث نقاط رئيسية:-

النقطة الأولي: إن هذه الواقعة يصعب على شخص عادي تدبيرها، فهى مؤامرة محكمة التخطيط، ولابد من شخصية يكون لها صفة الزعامة، والتأثير على القرى وبلاد البحر الصغير.

النقطة الثانية: تبين لدوجا Dugua إن معظم المعتدين على الجنود الفرنسين من خارج المنصورة، يتزعمهم شخصان بالغا الأهمية هما الأمير مصطفى وعلي العديسي، وكانت لهما شهرة في تلك الجهات بالسطوة،

(٣٩) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص٢٧٤-٢٧٥.

(٤٠) عمرو شرشر: بونابرت والشرق، رؤية تحليلية للأحداث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م، ص٥٠ -٥١.

(41) Revue Retrospective: op.cit. p168.

والجاه ، وشدة البأس، ونتج عنهما هزيمة الجيش الفرنسي في المنصورة، وتبين لدوجا Dugua أيضاً أن حسن طوبار هو الرأس المدبر لهذه الواقعة، وأن له دوراً مؤثراً في تنفيذها، وأذرعاً طويلة تمتد بحمل الإمدادات لمعاونة القرى المجاورة، وإمداد الثوار بالسلاح، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تبين لدوجا Dugua أن حسن طوبار ملاذ آمن للبطلين الهاربين علي العديسي والأمير مصطفى، وجميع الثوار، والأهالي الذين غادروا مدينة المنصورة والبلاد المجاورة لها، خوفاً من بطش الفرنسيين(٤٢).

وقد تأكد ذلك لدوجا Dugua من خلال رسالة بعثها فيال Vial إليه في ٢٢ أغسطس ١٧٩٨م، أكد له فيها بأن مجموعة من سكان المنصورة والبلاد المجاورة قد لجئوا إلى حسن طوبار المساند لهم، والمخطط لواقعة المنصورة، وذلك خوفاً من العقاب وكان حسن طوبار على إتصال دائم بالأمير مصطفى وعلي العديسي المطلوب أسرهما(٤٣).

تدهورت الحالة الأمنية في المنصورة، و استولى الزعر على الأهالي، وهاجر كثير من أهلها فراراً بأنفسهم من اتهامهم في واقعة قتل الحامية الفرنسية، وركدت الأسواق، وقلت المعاملات، وعاشت مدينة المنصورة في رعب إنتظاراً لما تسفر عنه التحقيقات، لذلك رأى دوجا Dugua أن يبعث برسالة لبونابرت Bonaparteبالقاهرة، يخبره عما توصل إليه في سير التحقيقات مطالباً إياه في رسالته بالعفو عن أهالي المنصورة والعودة إلى أعمالهم، وألا يعفو عن القرى التي شاركت في الإعتداء، وأبرز قيادتهم خاصة الأمير مصطفى وعلي العديسي المرتبط انتماءهما بحسن طوبار، وكان غرض دوجا Dugua من ذلك أن يؤخر معاقبة سكان هذه القرى إلى أن تصل القوى الكافية، وينحصر الفيضان الذي كان يتلف الطرق، ويعطل المواصلات، فرد بونابرت Bonaparte عليه في ٣١ أغسطس ١٧٩٨م برسالة بأن يستخدم ما يراه مناسباً، وقد جاء نص هذه الرسالة متضمة الأتي:

المادة الأولى: توقف الغرامات التي فرضت على بلاد المنصورة.

المادة الثانية: تدفع مدينة المنصورة غرامة قدرها ثلاثة ألاف ريال، تفرض على الأغنياء من أهلها عقاباً لهم على سوء صنيعهم نحو جنودنا.

المادة الثالثة: يدفع السيد الشناوي أحد أهالي المنصورة غرامة قدرها ٢٠٠٠ ريال، وفي المقابل يُعطي أماناً علي نفسه وعلى أملاكه وأمواله.

المادة الرابعة: تُفرض غرامة ٢٠٠٠ ريال علي أسوأ البلاد سلوكاً في مديرية المنصورة.

المادة الخامسة: تدفع هذه المبالغ إلى أمين خزانة فرقة الضابط دوجا Dugua، وتكون

(٤٢) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص٢٧٥.

(٤٣) هنري لورنس وآخرون: الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإسلام، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥م، ص٣١٧.

تحت تصرف مدير مهمات الجيش، وعليه أن يخصصها لبناء أفران الجيش، وإدارتها، وإستئجار المراكب والنفقات المطلوبة للفرقة(٤٤).

اكتفي دوجا Dugua بالحكم على اثنين من أهالي المنصورة بالإعدام، لثبوت إشتراكهما في قتل الفرنسيين وأنفذ الحكم فيهما، وطافا برأسيهما في شوارع المنصورة ليكونا عبره، وتخويفاً، وترهيباً، لمن يفكر أن يقدم على مثل هذا الأمر، وبدأ دوجا Dugua التفكير في التعامل مع حسن طوبار، وأخذ يتعقب المعتدين من أجل القبض عليهم، وبالرغم من إعدامهما ومصادرة العديد من الأموال والمواشي لأهل المنصورة، وبالرغم من الغرامات التي فرضت على الأهالي والأعيان إلا أن هذه الإجراءات بلا جدوى ولم تؤد إلى نتائج محموده، طالما لم تستأصل المقاومة من جذورها المتمثلة في حسن طوبار، والقبض على الأمير مصطفى وعلي العديسي، وتجريد حملة عسكرية لمعاقبة القرى التي إشتركت في الإعتداء على الجنود الفرنسيين في المنصورة(٤٥).

لم يكف حسن طوبار عن التفكير في الهجوم على الفرنسيين، وأصبح إقليم المنزلة يسبب مأساه حقيقية للفرنسيين، لما لاقوه من متاعب كثيرة، ففي بحيرة المنزلة التي جعلها حسن طوبار مركزاً للمقاومين، مناوشات وهجوم مستمر على القوات الفرنسية، تسببت هذه الحركات في منع القوات البحرية الفرنسية عبور بحيرة المنزلة، وفي البحر الصغير والنيل عمليات مداهمة وقتل للجنود الفرنسيين، وباتت المواصلات النيلية في فرع دمياط مهددة، فكان السير منعدماً لأن الثوار قطعوا جسور الترع فغمرت المياه الطرق وأتلفتها، ووحل الجنود في الطرق والمستنقعات، وكتب المؤرخ الفرنسي ريبو Ribo معبراً عن تلك المأساة واصفاً سكان تلك الجهات، فيقول: "إن مديرية المنصورة التي كانت مسرحاً للإضطرابات تتصل ببحيرة المنزلة، وهي بحيرة كبيرة تقع بين دمياط وبورسعيد، والجهات المجاورة لهذه البحيرة والجزر التي بها يسكنها قوم أشداء ذو نخوة، ولهم جلد وصبر، وهم أشد بأساً وقوة عن سائر المصريين، وهم أغنياء بسبب دخلهم الكبير من الصيد، ولهم في البحيرة مراكب كثيرة تجعل لهم السيادة على البحيرة، ولهؤلاء ولسكان هذه الجزر أربعون رئيساً منهم، وكل هؤلاء الرؤساء يتبعون حسن طوبار شيخ إقليم المنزلة، فهو الزعيم الأكبر لهذه المنطقة"(٣).

إشتدت المقاومة وعجز الفرنسيون عن ملاحقة حسن طوبار والثوار، لما لحقهم من الإعياء الشديد، وإمتنع كثير من سكان البلاد عن دفع الضرائب وأشار المؤرخ الفرنسي ريبو Ribo إلى ذلك فيقول: "إن محصلي الأموال الأميرية إذا ذهبوا إلى القرى لجباية الضرائب، ومصادرة أملاك المماليك يقابلون بإطلاق

(٤٤) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السـابق، ص٢٧٥؛ عبد الغفار محمد حسين: المرجع السابق، ص٧٤.

(٤٥) عمرو شرشر: المرجع السابق، ص٥١.

(٣) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السـابق، ص٢٧٧-٢٧٩. نقلا عن ريبو.

الرصاص رمياً، أوبالعصي ضرباً، وفي بعض الأحيان كانوا يصحبون بعض الغفراء لحراستهم، فلا يعصمهم ذلك من مقاومة الأهالي لهم". وعطل الفيضان حركات نقل الجنود إلى البر، فساعد هذا العامل على فيضان روح الثورة في القرى، وإضطر دوجا إلى تأخير ما عهد إليه من إخضاع ذلك الإقليم، ومعاقبة القرى التي ثارت في وجه الجيش أو التي إشتركت في قتل الحامية الفرنسية(٤٦).

وكانت منية محلة دمنه والقباب الكبري أكثر البلاد التي جاهرت بالعصيان، وعدم دفع الضرائب، وقد تبين ذلك من خلال رسالة بعثها فيال Vial قائد الجيش الفرنسي في دمياط إلى دوجا Dugua قائد الجيش الفرنسي في المنصورة، يقول له فيها: "إن مصيبتي الكبرى وعقبتي الوحيدة هى منية محلة دمنه، والقباب الكبرى فهما تحت تأثير رجلين هما علي العديس والأمير مصطفى، وهما على إتصال دائم بحسن طوبار ينفذان مايطلبه منهما وينتظران منه العون والنجدة، فيجب أن لا يترك له الوقت لإمدادهما، ومن ثم يجب مهاجمة المنيه والقباب في أسرع وقت ممكن، ثم إحتلال موقع عسكري بين القباب ودموه السباخ، يحول بين الرجلين وبين كل مدد يأتيهما من حسن طوبار، وإذا قاوم الأهالى وجب سحقهم وسحق قراهم، وإذا سلموا بدون إطلاق النار فيجب عليهم أن يسلموا لنا في الحال عشرين رهينة منهم، وأن يسلموا على العديسي والأمير مصطفى، ويسلموا جميع أسلحتهم، وعشرين جوادًا و ثلاثون من الماشية"(٤٧).

معركة الجمالية(الدقهلية):

غادرت حملة داماس Damas قرية برينبال الجديدة، قبل شروق يوم ١٩سبتمبر ١٧٩٨م، و تحركت بالسفن بحراً عن طريق بحر أشمون، متجهه إلى قرية الجمالية، وهى إحدى قرى مركز المنزلة، وخط المقاومة الأول للدفاع عنها، وكان الأهالي يرصدون تحركات الجنود الفرنسيين، وعندما وصل الخبر إلى حسن طوبار، بأن الفرنسيين يقتربون من إقتحام الجمالية، أسرع على الفور بتجهيز المقاومين وأمر أهالي الجمالية برصد تحركات الجنود الفرنسيين، وأرسل حسن طوبار فرقة من الثوار لمناوشة الحملة في بحر أشمون، لإستدراكهم بمناوشات فردية في منطقة يصعب على الفرنسيين إجتيازها، وبالفعل قامت مجموعة من الثوار بإستدراك الحملة، حتى توقفت السفن الفرنسية في بحر أشمون، لقلة المياه ولم تستطع السير، مما إضطر الجنود الفرنسيون إلى سحب مراكبهم بالحبال، فإنتهز حسن طوبار فرصة إرتباك الفرنسيين، وإشتبك مع القوات الفرنسية في معركة ضارية، عرفت بإسم معركة الجمالية، أدارها حسن طوبار بمهارة فائقة، حيث وزع المقاومين إلى مجموعات، حتى ينهال الضرب على الحملة الفرنسية من كل الجهات، فتفقد توازنها فما أن وصلت السفن الفرنسية إلى

(٤٦) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص٢٧٥ – ٢٧٦.نقلاً عن ريبو.

(٤٧) المرجع نفسه: ص٢٨٠.

الجمالية، حوالي الساعة العاشرة من صباح يوم ١٩سبتمبر١٧٩٨م، فوجئت بفرقة من الثوار يطلقون النار عليها، وفرقة أخرى يمطرونها بوابل من الحجارة والرصاص، من على أسوار بلدة الجماليه، ومن شدة المقاومه أمر داماس Damas بإنزال الجنود إلى البر الشرقي لرد الهجوم، وأمكنه أن يفرق الجموع، التي أحدثت بالقوات الفرنسية الكثير من الإصابات، والخسائر فى معركه طويله إستمرت أربع ساعات متواصلة (٤٨).

وبينما كان القتال دائراً بين حسن طوبار والفرنسيين، هاجم الفلاحون العزل من السلاح الفرنسيين بالعصي – الشماريخ –، بحماس بالغ يعجز القلم عن وصفه، حيث إنهم استشهدوا بين أسنة الرماح، وطلقات نيران المدفعية الفرنسية، وتعد هذه المعركة حلقة من سلسلة المذابح التي قام بها الفرنسيون في مصر، حيث إستشهد فيها حوالي خمسائة من الأهالي المدافعين عن بلادهم، في محاولات قتالية كشفت عن بسالة المقاومة الشعبية بزعامة حسن طوبار(٤٩)، وأيضاً عن قلة إمكانيات المقاومة بقيادة حسن طوبار.

و بعد هذا القتال العنيف أدرك داماس Damas أن خصمه شديد، ومنظم، ولا يمكن التغلب عليه في حرب تقليدية، وهو يحظي بسلطة ونفوذ مطلقين، ولديه مقاتلون مخلصون وملتزمون بكل أوامره، وأن إرادة حسن طوبار القوية ومن معه من الثوار المخلصين، فرضت على داماس Damas الإنسحاب، لما وجده من شدة المقاومة فأمر جنده بإشعال النار في قرية الجمالية وإمتدت ألسنة النار فأكلت الأخضر واليابس، وأتت على مئات البيوت للسكان، وذلك حتى ينشغل الأهالي في إطفائهم للحريق، وتكون فرصة له للإنسحاب، وإضطر داماس Damas إلى العودة إلى المنصورة، وفي طريق عودته مر على قرية ميت سلسيل – من بلاد دكرنس على البحر الصغير –، التي كانت من أكثر القرى تمرداً على الفرنسيين، فأحرقها، ولم يستطع داماس Damas اللحاق بسكانها، وإتجه إلى المنصورة فوصلها في ٢١ سبتمبر ١٧٩٨م ، بعد أن فشلت حملته في تحقيق آمالها المنشود(٥٠). ويبدو مما سبق أن داماس أحرق قرية ميت سلسيل بسبب هزيمته وفشله في إقتحام الجمالية ودخوله إلى المنزلة.

وعن بسالة حسن طوبار والأهالي في معركة الجمالية، كتب جازلاس Gazals أحد ضباط كتيبة داماس Damas، في تقرير له عن المعركة فيقول: "لما وصلنا بحراً تجاه الجمالية، وهى قرية كبيرة قوية تطل على الشاطئ الغربي من بحر أشمون، الذي يحميها من جهه، والمستنقعات التي تغمرها المياه من جهه أخرى،

(٤٨) كريستوفر هيرودك: النضال الشعبي ضد الحملـــة الفرنسية، ترجمة محمد فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ص٤٢.

(٤٩) حسن صبحي: المرجع السابق، ص٢١.

(٥٠)عبد العزيز حافظ دنيا: الشهيد محمد كـــريم، الـــدار القومية للطباعـــة والنشـــر، القـــاهرة، ١٩٦٥م،ص ١٤٣.

فوجئت السفن التي كانت تقل الجنود بعاصفة من الحجارة والرصاص إنهالت من أسوار بلدة الجمالية، وبيوتها، ونزلت الجنود حاملة سلاحها إلى البر الشرقي المقابل للقرية، وتأهبوا للقتال منتظرين قدوم الأعداء، ورأينا حسن طوبار ومعه جموع كثيره من العرب والفلاحين، مسلحين بالبنادق والسيوف والعصى من جميع الجهات لمهاجمتنا، وكان بعضهم راكبين الخيل، وأكثرهم مشاه، فدهشنا لهذه الهجمة العنيفة، ولكننا لم نؤخذ على غرة، فرأينا أكثرهم شجاعة يغامرون بأنفسهم، ويهاجمون إلى أن أصبحوا في وسط جنودنا، لكن الجنود حاربوهم ببسالة، ولقد رأيت بنفسي مجموعة من الفلاحين ليس بأيديهم سلاح سوى العصي، يهاجموننا بحماسة فيستشهدون بين أسنة رماحنا، وصدر لي الأمر بإطلاق النار على الأعداء المهاجمين، فأطلقنا النار عليهم، وفرقنا هذه الجموع بعد أن تركت الميدان مغطى بجثث القتلى، ولقد تمكن بعض الثوار من أن يعبروا بحر أشمون ثانية، ويتحصنوا في الجمالية، فأمرني القائد داماس Damasأن أخذ القوة الكافية واستولي على القرية عنوة، فعبرنا بحر أشمون بجسر أقمناه على عجل، ووزعت جنودي، فعهدت إلى جزء منهم برد الهجمات الآتية من خارج القرية، وهجمت بقوتي على القرية، واقتحمنا الباب الكبير بالرغم من مقاومة أهلها الذين دافعوا عنها دفاعاً قوياً، فاستولينا على جزء من القرية، و لكن أهلها الذين ظلوا يدافعون عن الجزء الآخر ممتنعين في البيوت والشوارع، وهجم الثوار على القوة التي دخلت القرية، ولكن صدتهم البنادق والحراب، وحصر جزء منهم في القرية وتمكن جماعة آخرون من أن يتسللوا منها، وألقوا بأنفسهم في المستنقعات، وذهبوا سباحة يحملون أسلحتهم وقد قدر خسائر الفرنسيين في هذه المعركة بخمسة قتلى، وخمسة عشر جريحاً، وقدر خسائر الأهالى بخمسمائة"[٥١].

وبعد إنتهاء المعركة أشار بونابرت Bonaparteإلى واقعة الجمالية في رسالته، بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٧٩٨م، قال فيها: "عندما بلغ القائد داماس Damas بلدة الجمالية، هجمت قوة من العرب منضمين إلى الفلاحين بقيادة حسن طوبار، الذي إتخذ التدابير الحربية لمواجهة جنودنا، والتي إنتهت برد هذا الهجوم، وإمتاز الضابط جازلاس Gazals في هذه الموقعة بمهارة فائقة"[٥٢]. ويبدو من رسالة بونابرت Bonaparte المبالغة وذلك لأن النصر لم يتحقق وبالرغم من ضخامة عدد قتلى الثوار إلا أنه بأي مقياس حربي دليل على تماسك حسن طوبار ورجاله ولكن هذا ليس بغريب عن قيادة المستعمر الذي كان دائما يقلل من حجم ودور المقاومة.

لم توفق الحملة الأولى على البحر الصغير في إتمام مهمتها، وإشتدت مقاومة حسن طوبار ورجاله، وانزلوا بالفرنسيين خسائر فادحة

---

(٥١) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص٢٨٢-٢٨٣. نقلاً عن جازلاس.

(٥٢) المرجع نفسه: ص٢٨٣. نقلاً عن مراسلات نابليون.

في دمياط والمنصورة، وبقى حسن طوبار قوياً يثير البلاد ويستفز الناس للمقاومة، مما جعل الفرنسيون يحسبون له حساباً كبيراً، ويسعون بمختلف الوسائل أن يجتذبوه إلى صفوفهم، بعد أن فشلوا في إنهاء المقاومة بالحرب، فما كان لدى الفرنسيين بعد هذا الدرس القاسي والهزيمة المنكرة في الجمالية، إلا الدخول مع حسن طوبار في مفاوضات سلمية من أجل إستمالته.

تمرد حسن طوبار فى دمياط:

مهدت المناورات الناجحة التي قام بها حسن طوبار، وتحركاته النضالية لخداع الفرنسيين، إلى امتداد شعلة الثورة إلى مدينة دمياط، وظهرت بوادر الإضطراب والهياج تنذر بخطر وخيم تهدد بقاء الفرنسيين هناك، وأصبح حسن طوبار الرأس المفكر، والقلب النابض للثورة، فعدد كبير من عرب محافظة الشرقية ومحافظة المنصورة وعرب الدرنة إتحدوا معه، وأبدو إستعدادهم للإنضمام لصفوف المقاومة تحت قيادته، فبدأ حسن طوبار في الإعداد والتخطيط لمهاجمة الفرنسيين في دمياط، وبعد مناقشات مطولة وإتصال وثيق بأعيان أهالي مدينة دمياط، وضع حسن طوبار خطة الهجوم، وهى أن تتحرك سفنه بالمقاتلين قاصده مشارف دمياط، وهناك يلتقي بجموع الأهالي والعرب المتحدين معه للفتك بالحامية الفرنسية هناك [٥٣].

وبالرغم من أن عملية الهجوم على دمياط كانت تسير في سرية تامة، إلا أن تنامي نفوذ حسن طوبار وحشده عدداً كبيراً من مراكبه الشراعية في بحيرة المنزلة، رغبة منه في إتخاذها سلاحاً للمقاومة أكدت شكوك فيال Vial، في أن حسن طوبار يجهز لمقاومة واسعة النطاق، وأن إستعداداته الهائلة في بحيرة المنزلة، وتحركاته المثيره تنذر بقرب هجوم محتمل على مدينة دمياط[٥٤]. ويبدو أن حسن طوبار أصبح مصدر قلق للفرنسيين في تلك الجهات.

وفي ليلة ١٦ من سبتمبر ١٧٩٨م تحرك أهالي البلاد المجاورة لدمياط، في الوقت الذي تحركت فيه سفن حسن طوبار وقاد جموع الثوار وأبحر بصحبة ١٥٠ سفينة مسلحة، راحت تشق بحيرة المنزلة قاصدة شواطئ دمياط، وفي الرابعة فجراً من يوم ١٦ سبتمبر ١٧٩٨م وصلت السفن قرية غيط النصارى، إحدى قرى دمياط والقريبة من البحيرة وتبعد عن تمركز الفرنسيين بحوالي ٢ كيلو متر، وهناك إلتقى الفلاحون القادمون من القرى بالثوار الهابطون من السفن، وكانوا مسلحين بالرماح والبنادق، وبدأ القتال فكان الجنود الفرنسيون الساهرون لحراسة الحدود في المواقع الأمامية للمدينة أول ضحايا الإشتباك، فقد هاجمت مجموعة من الثوار دورية حراسة فرنسية وأبادتها عن آخرها[٥٥].

إستمر حسن طوبار ومن معه من الثوار في الزحف، قاصدين تمركز الحامية الفرنسية،

(53) Courier De L'Egypte : N8 , p2.

(٥٤) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص ٢٨٦.

(55) J.Michel de Niello Sargy: op.cit.p152.

التي أخذت من الوكالات على النيل مسكناً لها، مندفعين كالصاعقة، يطلقون صيحات مدوية بضجيج عظيم، وعجيج جسيم، وهم ينادون: "اليوم يوم المغازاة من هؤلاء الكفار، ومن يتبعهم من النصارى، اليوم ننصر الدين، ونقتل هؤلاء الملاعيين" وكان لتلك الأصوات صدى رهيب، إستيقظ عليها الفرنسيون فزعاً من النوم (٥٦).

وعلى الفور صدرت أوامر فيال Vial بصد هجوم الثوار، والتقى الطرفان في معركة شرسة، إستبسل فيها حسن طوبار ومن معه من جموع الثوار وسط نيران ملتهبة، وإستمرت المعركة ليلة ١٦ سبتمبر ١٧٩٨م حتى صباح اليوم التالي، وشعر فيال Vial في أول المعركة بأن الصراع غير متكافئ، بسبب كثرة المقاومين المتحدين مع حسن طوبار، فضلاً عن عنصر المفاجأة التي أفقدت القوات الفرنسية تنظيمها، فما كان عليه إلا أن أصدر أمراً بإعداد القوارب لعبور الضفة الثانية من النيل، لإعادة ترتيب جنوده وإنتظار الدعم القادم من المنصورة، و بتراجع فيال Vial وجنوده شعر الثوار بفرحة الإنتصار، وإنشغلوا بالغنائم وتركوا مواقعهم في فوضى داخل مدينة دمياط، الأمر الذي جعل اليونانيين المقيمين في دمياط يخشون السرقة، خوفاً على تجارتهم وأموالهم، فأطلقوا الأعيرة النارية من منازلهم على الثوار، فرد عليهم الثوار بطلقات نارية أدى إلى نفاذ الذخيرة التي معهم (٥٧).

موقف اليونانين من ثورة دمياط:

كانت مدينه دمياط أحد عروش بطريركيه الروم الأرثوذكس ، واتصل تاريخها مباشره بتاريخ بطريركية الروم الأرثوذكس فى الاسكندريه وبطاركتها ، وكان عدد الروم الأرثوذكس المتحدثين باللغه اليونانيه والعربيه فى دمياط حوالى ٢٥٠ أسره يونانية أثناء قدوم الحملة الفرنسية ، إنخفض هذا العدد بصوره تدريجيه ومازالت فى دمياط بعض الأسر القليله يتحدثون فقط اللغه العربيه بالرغم من أصولهم اليونانيه .(٥٨)

أثناء ثورة دمياط على الفرنسيين ، لعب اليونانيين دوراً كبيراً فى إخماد تلك الثورة ووقفوا بجانب الفرنسيين خوفاً علي تجارتهم

---

(٥٦) نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، ط١، حققه وقدم له حواشيه ياسين سويد، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ١٩٩٠م.ص٥٣.

(57) J. Dénain: op.cit.p7.

*نيكولاس بابادوبولو Nicolas Papadopoulo : هو مواطن يوناني، عاش في دمياط منذ سبع سنوات قبل مجئ الحملة الفرنسية، وظل في خدمة المماليك كقائد لأسطول مراد بيك في النيل، وعندما جاءت الحملة الفرنسية وقف بجانبهم، مما أدى ذلك إلى إشتعال الغضب تجاه عائلته المتواجدة في دمياط، فبعد خروج الحملة الفرنسية عام ١٨٠١م، تم إستياق عائلته إلى السجن لثلاث سنوات، وانتزعت منه الدولة العثمانية كل أملاكه ورجعت إلى الأتراك، ثم رحل إلى مرسيليا بعد الإفراج عنه. للمزيد انظر:

Carent De La Sapretache: Revue Militaire Retrospective, Septieme Volume, paris, 1899, p655 – 656.

(٥٨) جميل بورى: كنيسه القديسين مارجرجس ونيقولاس الروم الارثوذكس فى دمياط، ٢٠٠٨ ، ص٦.

وأموالهم ، الأمر الذي جعلهم يطلقون الأعيـرة النارية من منازلهم علي المقتحمين من الثوار ، ويذكر نيكولاس بابادوبولو Nicolas* وهو أحـد اليونانيين في دمياط شهادته فيقول "منذ حـدوث تمرد حسن طوبار في دمياط اضطررت بأن أعد الأسلحة والقوات ضد الاتراك ، واذهب سـريعا لمساعدة الفرنسيين علـي رأس مائـة يونـاني وهؤلاء اليونانيون كانوا تحت لـوائي ، وبعـد مرور الوقت علي هذا الهجوم ، أصبحت أنـا ورجالي مجندين في خدمة الفرنسين في دميـاط حتي خروج الحملة من مصر" .(٥٩)

وكافأ بونابرت Bonaparte نيكولاس Nicolas، على التعاون مع الفرنسيين في دمياط، فأصدر أمراً له بالحماية واللجوء، حيث كتب رسالة إلى فيال Vial يقول له فيها: "إن المراكز العسكرية للجيش الفرنسي في مصر تعتبر نيكولاس Nicolas الذي كان يدافع عن الفرنسيين في دمياط، أثناء مهاجمة حسن طوبار ورجاله على المدينة بالصديق الوفي، فلا ننسى له أنه كان يخدم في الأسطول التابع لمراد بك سبع سنوات، وعندما تعرضت الحملة الفرنسية للهجوم ترك أسطول مراد بك وذهب بجنوده ليدافع عن الفرنسيين، إنني قد منحت له ١٠٠٠ تيلرز* كمكافأة له لوقوفه بجوار الجيش الفرنسي"(٦٠).

ولأهمية دور اليونانيين في دمياط ذكر جوزيف ماري مواريه Joseph Marie Moiret في مذكراته: "إن اليونانيين المقيمين في دمياط كانوا خيرعون لنا، إذ ظلوا ينبهوننا بلا كلل إلى مناورات العرب والبدو المتحدين مع حسن طوبار، وخطط أنصارهم في المدينة وقدموا لنا خدمة جليلة، حيث إستمعوا إلى هذه الصيحة التي أطلقت باللغة العربية عند إقتحام الثوار المدينة من أعلى المساجد " أيها الشعب إستيقظ فسوف نذبح الفرنسيين"، فقاموا فوراً بإبلاغ فيال Vialولم يكن لنا أبداً أن نفهم هذه الصيحة الموجهه باللغة العربية بما تنطوي عليه من نتائج مشئومة، لولا تحذير اليونانيين المحمود وقد أحسن فيال Vial صنعاً بعدم إهمال هذا النبأ، وإستعد لحسن طوبار ومن معه من الثوار(٦١).

(59) carent de la sapretache,op.cit. p655

*نيكولاس بابادوبولو: هو مواطن يونـاني عـاش فـي دمياط منذ سبع سنوات قبل مجئ الحملة الفرنسـية، وظل في خدمة المماليك كقائد لأسطول مراد بيك في النيل ، وعندما جاءت الحملة الفرنسية وقف بجانبهم مما أدى ذلك إلى إشتعال الغضـب تجـاه عائلتـه المتواجدة في دمياط، فبعد خروج الحملة الفرنسـية عام ١٨٠١م تم إستياق عائلته إلى السـجن لـثلاث سنوات وانتزعت منه الدولة العثمانية كـل أملاكـه ورجعت إلى الأتراك ثم رحل إلـى مرسـيليا بعـد الإفراج عنه. Ibidp.p655 - 656

*الواحد تيلرز: هى عمله يونانيه، ويعادل ٢٥٠٠ فرنك فرنسي. للمزيد انظر
Correspondance De Napoléon: op.cit.p136.

(60) Ibid.p136. انظر ملحق رقم (٢٨)

(٦١) جوزيف ماري مواريه: المرجع السابق، ص٧٣.

(4) Adrien Pascal: Les Bulletins De La Grande Armée, Tome 2, paris, 1841, p161.

خلاصة القول لعب اليونانيون في دمياط دوراً محورياً في هذه المعركة في مساعدة فيال علي تفهم ما يدور حوله وإلا لتكبد الفرنسيون خسائر كبيرة وأن معرفة اليونانيين اللغة العربية جعلتهم بمثابة عملاء ، أو جواسيس للفرنسين ينقلون لهم أخبار الثوار في مدينة دمياط أولا بأول ويعد ذلك موقف غير مشرف من اليونانيين.

انتفاضه عزبه البرج:

بعد هذا الصدام بين الفرنسين و الثوار فى دمياط وصلت الأخبارعند طلوع الشمس إلي أهالي عزبة البرج* ما حدث في دمياط عن هجوم حسن طوبار ومن معه من الثوار وقتلهم عددا كبيرا من الفرنسيين ، فاشتد حماس أهل القرية وتجمعت الأهالي واتجهوا إلي موقع الحامية الفرنسية المتواجدة هناك فصادفتهم مجموعة من خمسة أفراد من الجنود الفرنسيين فقتلوهم ورأوا مركباً قادماً به ثلاثة جنود فرنسيين آخرين فقتلوهم ، ثم واصلوا السير وقاموا بالهجوم علي قلعة عزبة البرج ، وكان بها عشرون جندياً فرنسياً مسلحاً فأغلقوا عليهم الأبواب وأمطروهم رمياً بالرصاص وقتلوهم جميعاً ولكن فرحتهم بهزيمة الفرنسين بدمياط لم تتم فلم يلبثوا أن وصلهم خبر إنتصار الفرنسين في اليوم التالي عند منتصف النهار و علم أهل القرية أن الخبر ليس صحيحاً وأن الفرنسين أخمدوا ثورة الأهالي ولا يزالون قائمين فى دمياط ، وأن الخبر كان مبالغاً فيه و أدركوا أن قوات فرنسية سوف تصل إلى عزبة البرج للانتقام منهم فأسرعوا في إخلاء قريتهم من نساءهم وأموالهم وأولادهم واتجهوا بمراكبهم قاصدين نواحي عكا علي سواحل سوريا حتى تنقشع الغمة، ولما وصل فيال وعلم ماحدث لجنوده اشتد غضبه واتجه علي الفور إلي قرية عزبة البرج وقام باقتحامها فوجدها خالية من أهلها ، وقام هو وجنوده بنهبها وتخريبها وأمر جنوده باحراقها ولم يتركوا سوى مسجدها ثم رجع إلي دمياط [٦٢] ومما سبق يتضح أن هروب أهالي عزبة البرج لا يقلل أبدا لشجاعتهم بل إنه تقدير للعواقب.

معركة الشعراء:

لم تعد القيادة الفرنسية في بلاد البحر الصغير قادرة على تقبل أي هزيمة، بعد أن ظهر جيشها بمظهر هزلي، أمام معارك حسن طوبار، فقد طفح بهم الكيل من الهزائم المتكررة، وكان لابد لهم من إعادة إعتبارهم، ورفع معنويات الجنود المنهارة، فبعد معركة عنيفة وصفت بالدموية دامت ليلة ١٦ سبتمبر ١٧٩٨م في دمياط، صار القتال متواصلاً، كاد النصر أن يكون حليف حسن طوبار ورجاله، غير أن عدم تكافؤ الأسلحة، والتنظيم دفع المهاجمين الثوار إلى التراجع إلى قرية الشعراء، واتخذوها مقرًا لهم، منتظرين أن يأتيهم المدد من بحيرة المنزلة، وبالفعل وصلت التعزيزات إلى هذه القرية آتيه من حسن طوبار، عن طريق بحيرة المنزلة،

(٦٢) محمد أبو السعود عبد الكافي: عزبة البرج تاريخ وتراث، مرجع سبق ذكره، ص٤٨-٤٩.

بالإضافة إلى انضمام عدد كبير من المقاتلين، القادمين من المدن والقرى المجاورة للشعراء، وأمام إستعدادات حسن طوبار إضطر بونابرت Bonaparte إلى إرسال أندريوسي Andréossy أحد ضباط البحرية الفرنسية لمعاونة فيال Vial في رد ضربات الثوار المتلاحقة، على القوات الفرنسية وتوطيد سلطان الفرنسيين في تلك الجهات، بعد أن وسع حسن طوبار نشاطه العسكري ضد الفرنسيين، كقائد بارع يتقن أساليب الكر والفر، ويتمتع بنفوذ عظيم بين القبائل، وعلى الجانب الأخر ففي ١٩سبتمبر ١٧٩٨م وصل لفيال Vial عدد كبير من الجند، والعتاد الحربي من دوجا Dugua لمساعدة الحامية الفرنسية في دمياط، التي أُنهكت وأستنفذ قواها، لتزايد شدة العنف والهجوم على معاقلهم من حسن طوبار ورجاله(٦٣).

بهذه التعزيزات الفرنسية التي وصلت دمياط وجد فيال Vial نفسه قد تحول من الدفاع إلى الهجوم، وشجعته هذه التعزيزات على مهاجمة قرية الشعراء، وتشاور مع أندريوسي Andréossy لوضع خطة محكمة للهجوم، وإبادة الثوار هناك، وإنتهوا إلى وضع خطة بتحرك فيال Vial نحو الشعراء عن طريق البر، أما أندريوسي Andréossy يأخذ قوة ويقابل العدو بحرًا، لكي يحكم الطوق عليهم عن طريق النيل، خلف الثوار ليمنع عليهم الهروب إلى البحيرة، وفي الوقت نفسه كان الثوار، متمركزين هناك على صف واحد، مُسيطرين على المساحة من النيل إلى بحيرة المنزله، وكان عددهم يتزايد يوما بعد يوم تحت قيادة زعيمهم حسن طوبار(٦٤).

و أثناء زحف فيال Vial وجنده من مناطق تمركزهم في دمياط إلى قرية الشعراء، فوجئ بأعداد من اليونانين والنصارى يعترضون سيره، في محاولة لإقناعه بعدم ترك المدينة خالية من الجنود، خوفاً من أن يفتك بهم أهل دمياط، لوقوفهم بجانب الفرنسيين أثناء المعركة التي دارت مع حسن طوبار في دمياط، وقالوا له: "ما يحل لك أيها القائد أن تذهب وتلقينا بأيدي هؤلاء الأشرار، لأننا قد سمعنا منهم أقتلوا النصارى قبل الفرنساوية، لأنهم متحدون معهم سوياً"(٦٥).

الأمر الذي جعل فيال Vial يتردد في الذهاب إلى قرية الشعراء، و يترك دمياط بدون حامية، فأرسل إلى دوجا Dugua يطلب منه إمدادات أخرى، فبعث إليه مائة وخمسين عسكرياً، وعند حضورهم تشجع وتحرك إلى قرية الشعراء مع بعض جنوده، وترك بقية الجنود في دمياط لحمايتها (٦٦). وهنا يظهر موقف اليونانين غير المشرف وخيانتهم للثورة.

في ٢٠ سبتمبر ١٧٩٨م وصل فيال Vial قرب منطقة الشعراء، الذي كان يدافع عنها

(63) J. Dénain : op.cit.p7 – 8.

(64) J.B. Salgues - L. Fayolle: op.cit. p376.

(٦٥) نقولا الترك: المرجع السابق، ص٥٤.

(٦٦) نقولا يوسف: تاريخ دمياط منذ أقدم العصور، كتب قومية، محافظة دمياط، ١٩٥٩م، ص٢٣٥.

نحو ١٥٠٠ من الثوار بقيادة حسن طوبار، تحميهم البحيرة من جانب، والنيل من جانب أخر، وكان يوجد في الخلف غابة من الشجر، في قرية المنية الواقعة أمام قرية الشعراء جنوب دمياط، ومن النظرة الأولى لرؤية الثوار للقوات الفرنسية بادروا بإطلاق النيران لإرباكهم، لكن هذه الطلقات لم تحقق هدفها في إيقاف زحف الفرنسين، لأنها كانت من على بعد كبير الأمر الذي أدى إلى نفاذ ذخيرة الثوار(٦٧).

ومع إقتراب القوات الفرنسية وهجومهم الكاسح على قرية الشعراء، خرج الثوار مندفعين في فوضى على حقول الأرز للتخفي فيه، وهروبهم من شدة المعركة، فالقصف دائر بلا توقف من الفرنسيين على مناطق تمركزهم، الأمر الذي أرغمهم على الفرار، فبعضهم إندفع داخل قرية الشعراء، والبعض الأخر منهم فر ناحية قرية المنية المواجهه لها، فوجدوها ممتلئة بالقناصين الفرنسيين، فألقي الكثير منهم بنفسه في النيل وسبحوا ليلحقوا بقواربهم، والبعض الأخر منهم عبروا عدة قنوات مائية خلف قرية الشعراء، لتصلهم ببحيرة المنزلة وقد وصل الماء في هذه القنوات لمستوي خصرهم، حينئذ إقتحم فيال Vial وجنوده علي الفور قرية الشعراء، ووصل جزء من جنوده حتى نهاية الحصون والخنادق التي تركها الثوار، وقام فيال Vial بإبادة قرية الشعراء وحرقها بنيران المدفعية الفرنسية، وبالرغم من وصول الثوار إلى ضفاف شاطئ بحيرة المنزلة، لاحقهم أندريوسي Andréossy وقطع عليهم ركوب سفنهم، ولاحقهم بطلقات نارية شديدة، وهكذا أصبح الثوار بين نارين، فمات عدد كبير منهم غرقاً في النيل، وفي بحيرة المنزلة (٦٨).

إحتل فيال Vial الشعراء، وكان النصر حليفه بعد معركة شرسة، بلغ فيها عدد قتلى الثوار على حسب تقارير فيال Vial حوالي ١٥٠٠ قتيل وغريق، وتم الإستيلاء على مدفعين من البرونز في غاية الجمال، تركها الثوار أثناء القصف، وبعض السفن، وثلاثة أعلام إنتزعها ثلاثة جنود فرنسيين، وهم كالآتي jaussoux رامي القنابل اليدوية، و pampeno من فرسان خيالة الحملة العسكرية ، و lefort وهو أحد ضباط كتيبة فيال Vial، أما خسائر الفرنسين على حسب تقارير فيال Vial أيضاً فهى قتيل وأربعة جرحى(٦٩).

كما ذكر بونابرت Bonaparte في منشوراته العسكرية بتاريخ ٢٤ سبتمبر ١٧٩٨م، نتائج واقعة الشعراء ولكنه بالغ في وصفها، إذ ذكر أن عدد الثوار فيها كان عشرة آلاف، وأن خسائرهم بلغت ١٥٠٠ قتيل وغريق، وليس من المعقول أن يحتشد في الشعراء عشرة آلاف ثائر، مهما كان عدد المدد الذي جاء إلى حسن طوبار من البلاد المجاورة، أو من بحيرة المنزلة، وبالتالي لا يعقل أن تبلغ خسائر الأهالي ١٥٠٠ قتبل، والظاهر أن هذه المبالغة راجعة

(67) J. Dénain : op.cit.p8 – 9.

(68) J.Michel de Niello Sargy: op.cit.p100.
(69) Adrien Pascal: op.cit.p164.

إلى الإحصاء المكذوب، الذي أورده فيال Vial في رسالته إلى بونابرت Bonaparte عن المعركة، لينتحل لنفسه فخراً لا يستحقه، ولتعظم منزلته عند بونابرت Bonaparte، على أن فيال Vial ذكر في رسالة إلى دوجا Dugua عن هذه الواقعة وقال له: "أن عدد القتلى الثوار فيما لا يزيد عن ٣٠٠" وفي هذا أيضا مبالغه، والواقع أن فيال Vial كان معروفاً عنه المبالغة والإغراق في رسائله وتقاريره(٧٠).

وقد أشار لوجيه Logée في يومياته عن مبالغة أرقام فيال Vial وعن نتائج موقعة الشعراء، فقال في هذا الصدد: "إن فيال Vial بالغ في تقريره مبالغة مدهشه، فجعل خسائر حسن طوبار ١٥٠٠ قتيل، في حين أن خسائره لم تبلغ ٥٠ قتيل، أما الفرنسيون فقد خسروا اثنى عشر قتيلاً، وثلاثين جريحاً، وهذا الإحصاء هو الذي إعتمدنا عليه"(٧١).

كانت تلك الهزيمة بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير، وأشفت غليل الفرنسيين، وأعطت لهم دافعًا قويا للقضاء على حسن طوبار ورجاله، وظهر ذلك في رسالة بونابرت Bonaparte التي كتبها إلى فيال Vial في ٢٤ سبتمبر ١٧٩٨م، قال فيها: "إن الهجوم الذي قمت به أيها القائد فيال Vial على قرية الشعراء أسعدني كثيرًا، وكان شرفاً لك، وأيضاً شرفاً للقوات الفرنسية، وإنني انتظر بفارغ الصبر، أن تخبرني أننا نحتل ونستولي على قرية المنزلة، وأننا نمتلك هناك خمساً أو ست سفن مسلحة على البحيرة، وأننا قبضنا على حسن طوبار"، وبعد رجوع فيال Vial إلى دمياط أحس بنشوة الإنتصار، الذي لم يكن يتوقعه على حسن طوبار وثواره، فرفع الأعلام الفرنسية الكثيرة إبتهاجاً، ونكس الأعلام العثمانية التي كانت مرفوعة فوق المباني، بالرغم من تحذير بونابرت Bonaparte بتركها بجانب الأعلام الفرنسية لمهادنه العثمانيين(٧٢).

كشفت هذه المعركة عن ملامح السياسة الجديدة لفيال Vial وجنوده، وهى الإبادة والتدمير، وإتخاذ إجراءات ترحيل النساء والأطفال والشيوخ من قراهم، وهذا التصرف هو الذي أقلق بونابرت Bonaparte من انضمامهم إلى حسن طوبار ورجال المقاومة، في المنزلة فعلى الفور بعث برسالة إلى فيال Vial في ٢٦ سبتمبر ١٧٩٨م كان نصها: "عليك أيها القائد فيال Vial أن تستغل تواجد الفرقة العسكرية التابعة لدوجا Dugua في دمياط، لإخلاء المدينة من السلاح، والقبض على المشتبه فيهم، وإرسالهم إلى القاهرة، بالإضافة إلى أخذ رهائن من كل القرى التي أثارت الرعب والفزع للفرنسين، أخبرك أيها القائد فيال Vial أنه طالما أنك لم تسيطر على بحيرة المنزلة، والقضاء على

(٧٠) عبد الرحمن الرافعي: المرجع السابق، ص٢٨٧ نقلا عن منشورات نابليون العسكرية ؛ Correspondance de Napoléon :op.cit.p9-10 .

(٧١) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٤ ، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م، ص٤٣٠. نقلا عن مذكرات لوجيه.

(72) Correspondance de Napoléon : op.cit. p7 - 8.

خطورة حسن طوبار هناك، فلن تستطيع في هذا الوقت أن تكون مطمئناً في دمياط، وأن تهتم بعودة سكان الشعراء وعزبة البرج المسالمين إلى مقاطعتهم، مع منحهم العفو الشامل إني أعتقد أنه حان الوقت الذي لابد أن يتوجه دوجا Dugua إلى بحيرة المنزلة للإستيلاء عليها، والتخلص من حسن طوبار، وأنا أخشى أن يكون هؤلاء السكان قد تجمعوا واتحدوا مع حسن طوبار في البحيرة"(٧٣).

ومما سبق يتضح أن انتصار قوات الحملة الفرنسية على حسن طوبار، الذي استبسل بكل ما يملك من إمكانيات من السلاح والثوار الشجعان، إلا أن المعركة لم تكن متكأفئة بسبب سلاح الحملة المتطور، والتشكيلات الفرنسية المنظمة، والتعزيزات الفرنسية الدائمة، التي كانت تصل إلى فيال Vial في دمياط للقضاء على ثورة حسن طوبار، ومع هذا كان حسن طوبار صامدًا مقاوماً مع أتباعه، الذين أطاعوه في كل المعارك التي دارت بينه وبين الفرنسيين.

هجوم الفرنسين على بحيره المنزله :

رأت قيادة بونابرت المركزية بالقاهرة أن نفوذ حسن طوبار يخلق للفرنسين الكثير من المتاعب ويعرقل تقدمهم في هذه المنطقة ويزعزع وجودهم في جهات البحر الصغير والمنزلة فضلا عن أنه يثير في الأهالي روح المقاومة فعزم علي أن يوجه إليه حملة ثانية لإخضاعه والاستيلاء علي المنزلة تلك البؤرة الرئيسة لمقاومة الفرنسيين في دمياط والمنصورة(٧٤)

ولقد تاكد لدي نابليون استحالة إغراء حسن طوبار أو شراء سكوته علي الاقل وأنه يواصل إثارة الاهالي وإعدادها للمقاومة واقتنع نابليون أيضا بأنه من المستحيل بأي طريقة لينة سلمية أن يتوصل لصداقته وأنه المحرض الرئيسى على الثورات في محافظات الشرقية، دمياط، المنصورة، فقرر نابليون ان يتصرف تجاهه بعدوانيه.(٧٥)

وقد اتخذ نابليون هذه الخطوة بعد أن أدرك أن حسن طوبار لن يخضع إلا بالحرب حيث علم نابليون من تقرير قواده أن منطقة دمياط لن تخضع للفرنسيين إلا اذا قضي علي نفوذ حسن طوبار المعسكر في المنزلة والمسيطر علي بحيرتها بأساطيله ورجاله .(٧٦)

وفي هذه المرة دعا نابليون جنده إلي استخدام القوة ضد الشيخ حسن طوبار مهما كانت النتائج ومهما تعقدت الأمور وأمر نابليون بتوجيه حملتين كبيرتين إحداهما بحرية بقيادة الضابط اندريوسي والاخري برية بقيادة الضابط داماس ونصب دوجا قائدا عاما لهاتين الحملتين ولقد كتب بونابرت إلي القائد دوجا (القائد العام علي مديرتي المنصورة ودمياط) في ٢٤ سبتمبر ١٧٩٨ ميلادية من المقر العام بالقاهرة

(٧٣) Correspondance de Napoléon : op.cit.p15.

(٧٤) عبد الرحمن الجبرتي: عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٤، مرجع سبق ذكره، ص٤٤٩.

(75) A.Hugo: France Militaire Histoire Des Armées Françaises De Terre, op.cit.p271

(76) A.Hugo: France Militaire Histoire Des Armées Françaises De Terre, op.cit.p273

رسالة قال له فيها " أحب أن أعلمك سواء كنت برا أو في القنال بحرا يجب عليك بشكل مطلق أن تصل إلي المنزلة وتتعامل مع حسن طوبار ولا تفلته بيدك وعليك أن تكون حذرا وتعامل معه بدهاء واذا أستطعت الامساك به عليك أن ترسله إلى القاهرة وعلي الفور أرسل أسطول ا قويا لكي يستولي علي المنزلة ومن هناك ترسل أسطول ا آخر بصحبة الضابط اندريوسي ويستولي علي كل جزر بحيرة المنزلة أن هدفي هو الاستيلاء علي بحيرة المنزلة بالكامل وأن تسير بكل فرقتك العسكرية هناك وعلي القائد اندريوسي أن يصل الي بيلوز."[٧٧]

ولقد بعث نابليون برسالة أخري إلي القائد دوجا يستعجله بالقضاء علي حسن طوبار والسيطرة علي المنزلة حيث قال له " لابد من وصولك الي المنزلة في أقرب وقت ممكن حتي يتمكن لنا من استئصال الجرثومة التي تحرض على الثورة و تدعي حسن طوبار "[٧٨] ويبدو من خلال تلك الرسالة أن حسن طوبار أصبح يمثل خطرا جثيما للحملة الفرنسية وأن وصف نابليون له بالجرثومه إنما يدل علي قوة تاثيره والفتك بقوة الحملة ولذلك كانت الخطة التي اتفق عليها دوجا وبونابرت هي إقتحام مدينة المنزلة والقضاء علي الشيخ حسن طوبار وتقضي هذه الخطة بانفاذ :

أولا : حملة بحرية في بحيرة المنزلة تحت قيادة القائد اندريوسي

ثانيا :انفاذ حملة اخري برية بقيادة القائد داماس

تخرج من المنصورة برا فتطبق القوتان علي المدينة من البحر والبر وذلك لحصار حسن طوبار وشل حركة المقاومة وتطويق بلدة المنزلة والاستيلاء عليها .[٧٩]

اهتم نابليون بونابرت كل الاهتمام بهذه الحملة وأعد لها كل شئ حيث كلف نابليون اندريوسي بتكاليف ذات شق عسكري والاخر علمي وبالفعل لبي الضابط اندريوسي نداء القائد العام علي الفور ونظم كل ما لديه وقام بتجهيز أسطول ه المكون من سته عشر مركبا منهم ثلاثة مراكب مسلحين ومائتي رجل موزعين علي السفن حتي وقت ميعاد الرحيل ووضع الجنرال اندريوسي خطة الحملة التي أمرنابليون بتجريدها لإخضاع حسن طوبار والسيطرة على جهات المنزلة فاتفقنا على أن يسير الجنرال أندريوسي بطريق البحر من مدينة دمياط الى بحيرة المنزلة ويسير الجنرال داماس بطريق البر من المنصورة إلى المنزلة فتطبق القوتان على المدينة من البر والبحر وبذلك يقضى على مقاومة حسن طوبار.[٨٠]

ولقد وصف لوجيه الحملة فقال " دخلت السفن ترعة أشمون وهذه الترعة واسعة وعميقة جدا على أنهار تضيق كلما اقتربت من مصبها من بحيرة المنزلة وهى تخترق بلادا غاية في

(77) ADER: Histoire de l'expédition d'Égypte et de Syrie,op.cit.P133 – 134

(78) Correspondance de Napoléon Ier, op.cit.p120

(79) Correspondance de Napoléon Ier, op.cit..p125

(٨٠) عبد الرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، مرجع سبق ذكره، ص٣٣٥.

الخصوبة ، وعلى شاطئيها أشجار الجميز الباسقة ولم نجد في القطر المصري جهه كثيرة الشبه بفرنسا مثل هذه الجهه والمسافة بين المنصورة والمنزلة عشرين فرسخا ، عددنا بها خمسين قرية أهله بالسكان.(٨١)

تحرك الجنرال اندريوسي من بوغاز دمياط متجها إلي المنزلة في يوم ٣ أكتوبر الساعة الثانية صباحا قبل الفجر وسارت الحملة في البحر المتوسط وفي الساعة الثالثة والنصف وصل الأسطول والرتل العسكري إلي الديبة وهي فتحة علي البحيرة نفسها وعن طريقها تصل البحيرة بالبحر المتوسط ، وفي اليوم التالي ٤ أكتوبر ١٧٩٨ ميلادية عاد الأسطول ليبحر وأقلع في مياه البحيرة وقام الأسطول بعمل طريق بين الجزر والجزء اليابس (الأرض التابعة لدمياط) ، وبعد ثماني ساعات من المسير توغل الأسطول الفرنسي عند أول منطقة في بحيرة المنزلة وهي قرية المطرية ، وهناك لمح القائد اندريوسي مآذن في قرية المنزلة من بعيد وكما لمح أيضا خلف الجزر الموجودة هناك حشودا هائلة من المراكب كان لها أثر كبير حيث أصابت ربان السفن الفرنسيين بالرعب والفزع ، فأدرك اندريوسي خطورة الموقف وخشي من عواقب الاصطدام لأن عدد المراكب التي شاهدها حوالي مائة مركب مسلحين قد سارعوا لمحاربة وملاحقة الفرنسيين ، علي الجانب الآخر وجد اندريوسي نفسه علي بعد خمسة فراسخ من دمياط وهو وسط مناطق مجهولة غير معروفه لديه وهو تحت رحمة أسطول حسن طوبار حيث أصبحت الرؤية منعدمة والوضع أصبح خطير واضطر إلي أن يتراجع إلي دمياط وأصبح الأسطول التابع لحسن طوبار مصطفى أمام الأسطول الفرنسي بشكل متوازي وأصبح التقابل والاصطدام بين الطرفين أمرا لا فرار منه .(٨٢) وفي سكون الليل أصدر حسن طوبار أمرا بأن يصدر الثوار صيحات قوية مخيفة مختلطة بالأصوات الحادة لعدد كبير من الآلات النحاسية والقرع علي الطبول والنفخ في أصداف البحر والضرب علي أسطح مراكبهم بأيديهم وأرجلهم قاصدين الإصطدام وإغراق الأسطول الفرنسي مما أفزع الجنود الفرنسيين التي تصدر أصوات عالية وبعد تلك الصيحات أمر حسن طوبار بتوالي القصف ناحية الأسطول الفرنسي .(٨٣)

كان حسن طوبار يقود الفلاحين والثوار بنفسه في هذه المعركة حيث عسكر الشيخ حسن طوبار خلف الجزر المنثورة في البحيرة ولما شاهد أسطول أعدائه بقيادة اندريوسي يقترب من المطرية لغزوها خرج بسفنه واعترض طريقه وتراجع اندريوسي وخاف الاشتباك فارتد إلي دمياط ولم يتركه الثوار يهرب في أمان بل انطلقوا خلفه يطاردونه ولكن انسحب الثوار لنفاذ ذخيرتهم وتركوا سفينة واحدة تراقب تحركات

(٨١) كريستوفر هيردوك: مرجع سبق ذكره، ص٤٤

(82) J. Dénain Histoire de l'expédition française en Egypte, op.cit.p7

(83) ADER: Histoire de l'expédition d'Égypte et de Syrie,op.cit.P136

الفرنسيين وظلت هذه السفنينة علي مرآي مـــن سكان دمياط طوال يوم ٤ أكتـــوبر وهكـــذا يتضح لنا أن الذي قام بهذه الحيلة والخديعة هـــو الشيخ حسن طوبار والتي كانت من المفترض أن تنجح لولا المساعدات التي وصلت من القـــوات الفرنسية المرابطة في دمياط لمعاونه اندريوسي الامر الذي أدي إلي تراجع سفن ومراكب حسن طوبار .(٨٤)

تحركت الحملة الثانية يـــوم ٤ أكتـــوبر ١٧٩٨ ميلادية الساعة السادسة صباحا ، بقيادة الجنرال داماس وقد لاقي عقبات في هذه الحملة ، فعند وصولها إلى قرية أشمون الرمان عـــادت تسعة مراكب كبيرة إلى المنصورة ولم تســـتطيع المرور في تلك المنطقة بسبب قلة عمقها وعنـــد اقترابها من مدخل المنزلة كانت هناك فرقة من المتمردين الثوار العرب التابعين لحسن طوبـــار يريـــدون اعتـــراض دخولـــه المنزلـــة و بعـــد مصادمات عنيفة منه تفرقت هذه القوة وتركـــت مدخل المنزلة(٨٥)

ويقول لوجيه (أحد أعضـــاء الحملـــة) فلما وصلت حملة القائد داماس إلي قرية الكردي في الخامس من أكتوبر جاء وفد مـــن المنزلـــة يطلب مقابلة قائد الحملة داماـــاس للمفاوضـــة و يطلب ضمانا بألا يعاملهم الجيش الفرنسي معاملة الأعداء ويظهر أن هذا الوفد جاء بإيعـــاز مـــن الشيخ حسن طوبار لما علم بأنه المقصود بهذه الحملة العسكرية وبالرغم من أن الوفد يعلم مبلغ كراهية الفرنسيين لحسن طوبار فإنه لما سئل عن مقاصده أثنوا عليه أحسن الثناء وقد كتـــب لهـــم داماس وثيقه يضمن فيهـــا أرواح الأهـــالي إذا سلكوا مع الجيش مسلك الولاء ودفعوا ما عليهم من الضرائب .(٨٦)

عندما علم الأهالي بقدوم الحملة تـــرك الكثير منهم قراهم وكان بعضهم تطوع للقتـــال ضد الفرنسيين مع الشيخ حسن طوبار فأصبحت القري شبه خالية نظرا للحالة المتردية التـــي أصبحت عليها البلاد وكانت كل قرية قد قامـــت بدفع الضريبة المقرره عليها فكانت ترسل أحدا منها أمام الشاطئ يقف ثابتا في مكانه ممسكا بيده نبوتا (عصا غليظة) مرفوعا إلي أعلي ويعلوه وصل الدفع ويقوم الفرنسيون أثنـــاء مـــرورهم بفحصه أما القرية التي لم تدفع فتحاول دفع مـــا عليها من ضرائب وواصلت الحملة سيرها حتي أصبحت قريبة من قرية المنزلة .(٨٧)

ويبدو من إرسال حسن طوبار لهـــؤلاء التابعين له للمفاوضه مع قائـــد الحملـــة البريـــة داماس ليس من سبيل الخضـــوع أو الانســـحاب ولكن هي حيلة أخري من حيل حسن طوبار فلو كان يريد المفاوضات لاستجاب إلي المفاوضات

(٨٤) عبد المنصف محمود: على ضفاف بحيرات مصر، ج١،دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م، ص٤٩

(٨٥) كريستوفر هيردوك: المرجع السابق، ص٤٥

(٨٦) علماء الحملة الفرنسية: المدن والأقاليم المصـــرية، ترجمة زهير الشايب، موسوعة وصف مصر، ج٣، دار الشايب للنشر، ١٩٩٩م.، ص٤٨

(٨٧) جمال الدين الرمادي: صور مـــن كفـــاح الشـــعب العربي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م. ،ص ١٠٥

السلمية التي بدأها معه نابليون ولكن كان الغرض الحقيقي من إفاد المبعوثين من قبل الشيخ حسن طوبار هو :

أولا : تعطيل الحملة البرية قليلا حيث يصعب عليه أن يتصدي إلي حملتين كبيرتين في آن واحد فالموقف لا يحتاج إلي المغامرة فهو يعلم تماما صعوبة الحرب علي جبهتين مفتوحتين خصوصا أن الإمكانيات الموجودة لديه أقل بكثير من إمكانيات الفرنسين فكان جيشا منظما يواجه مقاومة شعبيه باسله فكان لقاء بين قوتين غير متكافئتين.

ثانيا : يبدو أيضا من إرسال المبعوثين كان غرضه هو تقدير حسن طوبار لقوة الحملة البرية وتعطيلهم بعض الشئ حتي يستعيد ترتيب أوضاعه ويستعد لهم جيدا.

رأي حسن طوبار أنه من الصعوبه الحرب علي جبهتين من النيران ورأي أن يتخلص من الحملة البحرية للتفرغ للحملة البرية الأخري ولذلك عاد أسطول حسن طوبار ورجال المقاومة في الثامن من أكتوبر لمهاجمة دمياط من جديد ودارت معركة حامية الوطيس بين حسن طوبار ورجاله والسفن الحربية الفرنسية وقاوم الثوار ببساله وكانت نيران المدفعية والبنادق يتردد صداها بعيدا ولكن بالرغم من قوتهم الهائلة إلا أنهم فشلوا في محاولاتهم وذلك بسبب قذائف النيران من قبل الأسطول الفرنسي المكون من ثماني قطع حربية فقامت بإغراقهم في المياه وانتهي المشهد بالهروب الجماعي علي وجه السرعة ففروا تماما وفي هذه الاثناء كان دوجا في وضع نشط وعمل دؤوب للوصول إلي المنزلة برا وبحرا في عقر دار حسن طوبار.[٨٨]

الخاتمه :

اختصت هذه الدراسه بمقاومة الحملة الفرنسية فى إقليم شرق الدلتا والذى يعد من أغنى أقاليم مصر وأكثرها سكانا أثناء الاحتلال الفرنسى من ١٧٩٨ الى ١٨٠١ فقد إحتلها بونابرت إسما فقط ولكن فى الحقيقه لم تكن له السيطرة الكاملة على البلاد والقرى الواقعه فى نطاق هذا الإقليم .

وقد تبين ذلك من مواقف أكثر فلاحى إقليم شرق الدلتا الذين كانت قراهم قلاعا منيعه كانوا لا يرحبون على الإطلاق بالفرنسين بل أن المدن الكبرى مثل الدقهليه وطنطا والشرقيه ودمياط لم تكن دائما مكانا مأمونا لهم .

كشفت الدراسه أيضا عن طغيان الدور الوطنى لبعض الاعيان فى أقليم شرق الدلتا أثناء الإحتلال الفرنسى والتى كانت لهم أدوار بطوليه وظهر ذلك جليا عند حسن طوبار فى دمياط والمنزله أبو قوره بالدقهليه والأمير مصطفى بك أمير الحجاج بالشرقيه على العديسى بمنية محلة دمنه وغيرها من الحركات الثوريه التى أثبتت إخلاص أعيان الريف فى لحظه لم يكن لمصر جيشا يحميها فبرزت تلك الزعامات الشعبيه المخلصه كعنوان بارز للمقاومه ضد الفرنسين .

---

(٨٨) محمد قنديل البقلي ، ابطال المقاومة الشعبية ، دار المعارف ، القاهرة، ١٩٦٣ ، ص١٠٣

أوضحت الدراسه أيضا عن دور القرى الصغيرة والريف فى إشعال نار الثورة فهذه الثورات المحليه كما فى قريه الجمالية التابعة لمديرية الدقهلية وميت غمر التابعة للدقهلية وزفتى التابعة للغربية وعزبة البرج التابعه لدمياط وغيرها من القرى والنجوع نتج عنها قتل عدد كبير من الفرنسيين وكان من أهم ثمارها ثورة القاهرة الكبرى الأولى والثانيه وقيام المصريون بثورة عارمه ضد الاحتلال الفرنسى نتج عنها قتل حاكم القاهرة الفرنسى نينوى.

أبرزت الدراسه الدور الذى لعبه طائفة اليونانيين فى دمياط مع الحملة الفرنسية ضد الثوار من الاهالى وكان وقوفهم حائلا ضد النصر حيث ساعدوا الحملة الفرنسية ضد ثورة حسن طوبار .

وفى النهايه أن الحملة الفرنسية على مصر فى مجملها ليست خير كل الخير أو شر كل الشر فالبرغم من أنها أرهقت الفلاحين بالديون والغرامات وهجرت معظم أهالى القرى والمدن واستعمال القسوه مع الثائرين واستشهاد عدد كبير من الثوار بمدافعهم إلا أن للحمله إيجابيات لابد من عدم تغافلها مثل إنشاء المجمع العلمى لمصر والتفكير فى ربط البحرين المتوسط بالاحمر

كما كانت الحملة الفرنسية بمثابه الصدمه التى أيقظت الشرق العربى وإبراز الزعامات الشعبيه وترك حاله الجمود والركود التى كانت عليها أحوال البلاد أثناء الدوله العثمانيه والتى كان من نتائجها تعيين محمد على باشا حاكما على مصر ١٨٠٥م مؤسس مصر الحديثه .

المصادر والمراجع

أولاً: الوثائق الفرنسية:

أ) المراسلات:

(1) Correspondance De Napoléon. Tome 5, Paris, 1858.

(هذه مراسلات لنابليون وموجودة في دار الوثائق تحت عنوان مراسلات الزعماء)

ب) مذكرات:

(2) J.Michel de Niello Sargy: Mémoires Secrets Et Inédits Pour Servir à L'Histoire Contemporaine, Sur L'Expédition D'Égypte ,Tome 1, Paris, 1825.

,ج) مذكرات معربة:

(١) جوزيف ماري مواريه: مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية على مصر، ترجمة كامليا صبحي، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٠.

ثانياً: المصادر والمراجع العربية :

(١) أ.ب.كلوت بك: لمحة عامة إلى مصـــر، تعريب محمد مسعود، ج٢، مطبعة أبـــو الهول، القاهرة، د.ت.

(٢) أحمد حسين: موسوعة تاريخ مصر ، دار الشعب، القاهرة، د.ت.

(٣) أحمد عوض: فتح مصر الحديث، مطبعة مصر، القاهرة، ١٩٢٥م.

(٤) اميل خوري وعادل اسماعيل: السياســة الدولية في الشــرق العربـــي، ج١، دار النشر السياسية والتاريخ، ١٩٥٩م.

(٥) جمال الدين الرمادي: صور من كفاح الشعب العربي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٢م.

(٦) حسن صبحي: اليقظة القومية الكبرى، دار المعارف، ١٩٦٥م.

(٧) حسين مؤنس: الشرق الإسلامي في العصر الحديث، مطبعة حجازي، القاهرة، ١٩٣٨م.

(٨) رضا أسعد شريف: أعيان الريف المصري في العصر العثماني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،٢٠١٠م.

(٩) عبد الرحمن بن حسن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ج٤، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٩٨م.

(١٠) عبد العزيز حافظ دنيا: الشهيد محمد كريم، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥م.

(١١) عبد العزيز رفاعي: أصول النضال الثوري القومي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٤م.

(١٢) عبد الغفار محمد حسين: بناء الدولة الحديثة في مصر، ط١، دار المعارف، ١٩٨١م.

(١٣) عبد المنصف محمود: على ضفاف بحيرات مصر، ج١،دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.

(١٤) عبدالرحمن الرافعي: تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، ج١، ط٣، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٧م.

(١٥) علماء الحملة الفرنسية: المدن والأقاليم المصرية، ترجمة زهير الشايب، موسوعة وصف مصر، ج٣، دار الشايب للنشر، ١٩٩٩م.

(١٦) علي بركات: رؤية الجبرتي لبعض قضايا عصره، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٧م.

(١٧) عمرو شرشر: بونابرت والشرق، رؤية تحليلية للأحداث، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ٢٠١٠م.

(١٨) كرستوفر هيرولد: بونابرت في مصر، ترجمة فؤاد أندراوس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨م.

(١٩) كريستوفر هيرودك: النضال الشعبي ضد الحملة الفرنسية، ترجمة محمد فرج، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،د.ت.

(٢٠) محمد أبو السعود عبد الكافي: عزبة البرج تاريخ وتراث،الطبعة الأولى، دار الكتب المصرية، ٢٠١٠،ص٨٠.

(٢١) نقولا الترك: ذكر تملك جمهور الفرنساوية الأقطار المصرية والبلاد الشامية، ط١، حققه وقدم له حواشيه ياسين سويد، دار الفارابي، بيروت – لبنان، ١٩٩٠م.

(٢٢) نقولا يوسف: تاريخ دميـــاط منـــذ أقـــدم العصور، كتب قومية، محافظة دميـــاط، ١٩٥٩م.

(٢٣) هنري لورنس وآخرون: الحملة الفرنسية في مصر بونابرت والإســـلام، ترجمـــة بشير السباعي، سينا للنشـــر، القـــاهرة، ١٩٩٥م.

ثالثاً: المصادر والمراجع الأجنبية:

(1)**A. Hugo:** France Militaire Histoire Des Armées Françaises De Terre Et De Mer De 1792 à 1837, Tome 2, Paris, 1838.

(2)**Adrien Pascal:** Les Bulletins De La Grande Armée, Tome 2, paris, 1841.

(3)**Edward Cust:** Annals Of The Wars Of The Eighteenth Century, London, 1860.

(4)**J. Dénain :** Histoire De L'Expédition Française En Egypte, Volume 2, Paris ,1830.

(5)J**.B. Salgues - L. Fayolle:** Mémoire Pour Servir à L'Histoire De France Sous Le Gouvernement De Napoléon Buonaparte Et Pendant L'absence De La Maison De Bourbon, Volume 2, Paris, 1814.

(6) **M.Ader:** Histoire De L'Expédition D'Égypte Et De Syrie, Paris, 1826.

رابعاً: الدوريات العربية:

(١) دار الهلال: الفرنسيون فستق للأكل لا للحرب ، بتاريخ ١ أغسطس ١٩٦٨م.

خامساً: الدوريات الأجنبية:

(1) Carent De La Sapretache: Revue Militaire Retrospectiv , Septieme volume , Paris, 1899.

(2) Courier De L'Egypte : N8, N26, N75.

(3) Revue Retrospective: Contenant Des Memoires Et Documents Authentiques Inedits Et Originaux, Tome II, Paris, 1838.

الملاحق:

أولاً: الخرائط:

خريطة توضح المقاومة الشعبية للحملة الفرنسية في قرية الجمالية

ثانياً: الوثائق الفرنسية:

3509. — CONSEIL D'ADMINISTRATION.

Quartier général, au Caire, 29 vendémiaire an VII (20 octobre 1798).

L'intendant général a apporté les lettres pour les recouvrements à faire dans les provinces de Charqyeh, Bahyreh et Atfyeh. La continuation est remise à demain, et cependant il a donné le détail des sommes demandées dans chaque province, savoir :

PROVINCES.	MYRY D'ÉTÉ.	MYRY D'HIVER.	TOTAL.
	pataques [1]. méd.	pataques.	pataques. méd.
Gharbyeh	17,064 54	82,500 500	100,064 54
Atfyeh	»	8,300	8,300 00
Menouf	»	71,850	71,850 00
Rosette	84,352 00 739 00	9,500	94,591 00
Damiette	194,248 00	5,700	199,948 00
Mansourah	128,212 00	34,600	162,812 00
Bahyreh	5,542 28	12,800	18,342 28
Qelyoub	»	30,100	30,100 00
Gyzeh	»	13,800	13,800 00
Charqyeh	»	43,100	43,100 00
Behnesé	»	28,750	28,750 00
		Total général	771,657 82

Dans trois jours, l'intendant général remettra l'état des demandes à faire à Minyeh et au Fayoum.

Les états détaillés par village des sommes ci-dessus ont été envoyés en français aux agents, les 13, 14 et 15 brumaire, pour en donner copie aux généraux commandants; ceux de Charqyeh et de Gharbyeh ont été adressés directement aux généraux commandants.

SURPLUS DES PROVINCES.

Minyeh	10,000 pataques.	
Fayoum	16,300	
Manfaloutyeh	6,000	
Premier total	32,300	
Deuxième total des provinces ci-dessus.	771,657	82 médins.
Total général des quatorze provinces.	803,957	82

L'intendant général présentera le travail général de ce qui est à exiger de Gizeh, après-demain, avec toutes les formalités d'usage.

Ce travail contiendra ce que les villages doivent pour le myry, le feddân, les droits extraordinaires, ainsi que ceux exigés des villages qui appartenaient aux Mameluks, aux femmes des Mameluks, etc.

L'intendant général fera prévenir les propriétaires des différents villages que, s'ils ne se dépêchent d'avoir l'impôt, ils perdront leurs propriétés.

[1] La pataque valait 90 médins; le médin, 3 centimes 1/2.

Les demandes aux villages contiendront la totalité de ce qu'ils doivent payer en différents termes; mais ils ne devront acquitter tout de suite que le tiers de la totalité, y compris ce qui a déjà été demandé.

Collection Napoléon.

تتضمن الرسالة أوامر إلى وكيل الصندوق العام بأن يحضر كل الخطابات لكل من المحافظات التالية الشرقية ودمياط والمنصورة والغربية ويعرض المبالغ المخصصة لكل محافظة

3617. — AU GÉNÉRAL REYNIER, A BELBEYS.

Quartier général, au Caire, 24 brumaire an VII (14 novembre 1798).

Je vous prie, Citoyen Général, de faire réunir à Boulâq les détachements des 7e et 23e qui se trouvent être encore à Sâlheyeh et à Belbeys, car il est très-essentiel de tenir les régiments réunis. Voyez, je vous prie, de prendre les mesures efficaces pour avoir des chevaux. La province de Charqyeh est celle qui en devrait fournir le plus : c'est celle qui en fournit le moins. La saison approche où sans cavalerie nous ne pourrons rien faire nulle part.

BONAPARTE.

J'ai donné ordre au payeur de vous faire toucher 3,000 francs pour dépenses secrètes.

Dépôt de la guerre.

إلى الجنرال رينيه في بلبيس تتضمن الرسالة بأن نابليون يطلب اللواء بأن يتجمع في بولاق ويجمع الفرق العسكرية رقم ٧ و ٢٣ المتواجدين في الصالحية وبلبيس

3476. — AU GÉNÉRAL VIAL, A MANSOURAH.

Quartier général, au Caire, 24 vendémiaire an VII (15 octobre 1798).

Je suis fâché, Citoyen Général, qu'on ait pillé le village de Myt-el-Khaouly : il suffisait de lui faire rendre les armes. J'ai appris avec plaisir que vous leur avez enlevé des canons.

BONAPARTE.

Collection Napoléon.

إلى الجنرال فيال في المنصورة وتتضمن الرسالة أن نابليون مستاء لما حدث من سرقة ونهب لقرية ميت الخولي ويقول أنه كان يكفي أن توجه إليهم الأسلحة فقط ويقول أنه كان سعيد بنزع كل المدافع من هناك.

3467. — AU GÉNÉRAL BERTHIER.

Quartier général, au Caire, 23 vendémiaire an VII (14 octobre 1798).

Vous voudrez bien, Citoyen Général, donner l'ordre au général Dugua de se transporter à Damiette avec sa division. Vous donnerez l'ordre au général Vial de se porter à Mansourah pour prendre le commandement de cette province ; le général Dugua prendra celui de la province de Damiette.

Vous ordonnerez au général Dugua de laisser, pour la garde de Mansourah et de la province, le 3e bataillon de la 2e demi-brigade d'infanterie légère.

Le village d'El-Menzaleh fera partie, avec ses dépendances, de la province de Damiette.

Vous donnerez l'ordre au 3e bataillon de la 13e demi-brigade de rejoindre au Vieux-Caire sa division.

Le général Dugua laissera à Mansourah, avec le 3e bataillon de la 2e, deux pièces de 3, qui y resteront jusqu'à ce que le général Dommartin ait fait passer au général Vial, à Mansourah, deux pièces de canon.

L'artillerie, le commissaire des guerres, qui sont à Damiette, resteront dans cette place.

Le général Dugua aura soin de ne pas confondre les deux pièces de 8 qui sont à Damiette, comme faisant partie de sa division, ces deux pièces étant attachées à la place.

Vous recommanderez au général Dugua :

1° De tenir son avant-garde au village d'El-Menzaleh ; d'avoir un ou deux bateaux armés, croisant près de Mataryeh ; de faire arranger les chemins d'El-Menzaleh à Mataryeh, de manière que les troupes et l'artillerie puissent se porter rapidement d'El-Menzaleh à Mataryeh ; il fera cantonner les troupes qu'il jugera à propos de laisser à El-Menzaleh dans la maison d'Hassan-Toubâr et autres maisons des particuliers ; il prendra, s'il ne peut faire autrement, les mosquées, ayant soin d'en laisser une pour le service public ;

2° De favoriser de tous ses moyens la reconnaissance de Peluse ;

3° D'activer de tous ses moyens les travaux que vient d'ordonner le général du génie ;

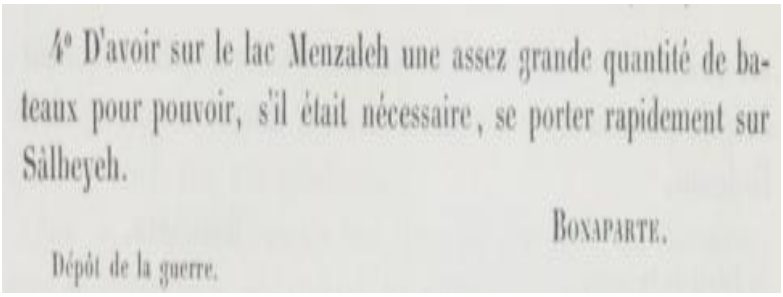

4° D'avoir sur le lac Menzaleh une assez grande quantité de bateaux pour pouvoir, s'il était nécessaire, se porter rapidement sur Sâlheyeh.

BONAPARTE.

Dépôt de la guerre.

تتضمن الرسالة بإعطاء أوامر إلى الجنرال دوجا بأن ينتقل إلى دمياط بصحبة فرقته العسكرية وأن يتولى مهام محافظة دمياط.

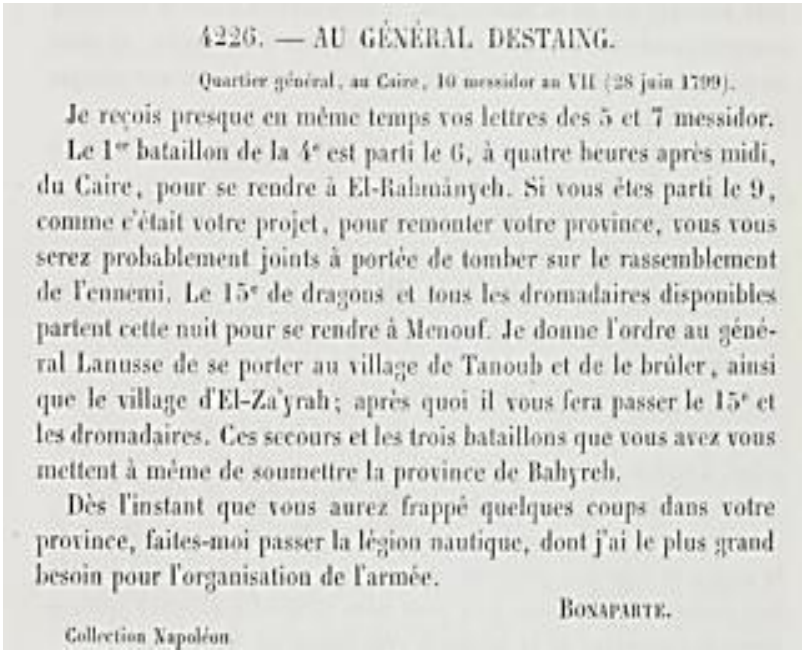

4226. — AU GÉNÉRAL DESTAING.

Quartier général, au Caire, 10 messidor an VII (28 juin 1799).

Je reçois presque en même temps vos lettres des 5 et 7 messidor.

Le 1er bataillon de la 4e est parti le 6, à quatre heures après midi, du Caire, pour se rendre à El-Rahmânyeh. Si vous êtes parti le 9, comme c'était votre projet, pour remonter votre province, vous vous serez probablement joints à portée de tomber sur le rassemblement de l'ennemi. Le 15e de dragons et tous les dromadaires disponibles partent cette nuit pour se rendre à Menouf. Je donne l'ordre au général Lanusse de se porter au village de Tanoub et de le brûler, ainsi que le village d'El-Za'yrah; après quoi il vous fera passer le 15e et les dromadaires. Ces secours et les trois bataillons que vous avez vous mettent à même de soumettre la province de Bahyreh.

Dès l'instant que vous aurez frappé quelques coups dans votre province, faites-moi passer la légion nautique, dont j'ai le plus grand besoin pour l'organisation de l'armée.

BONAPARTE.

Collection Napoléon.

إلى الجنرال لانوس وإعطاءه أوامر بالتوجه إلى المنوفيه إحرقها.

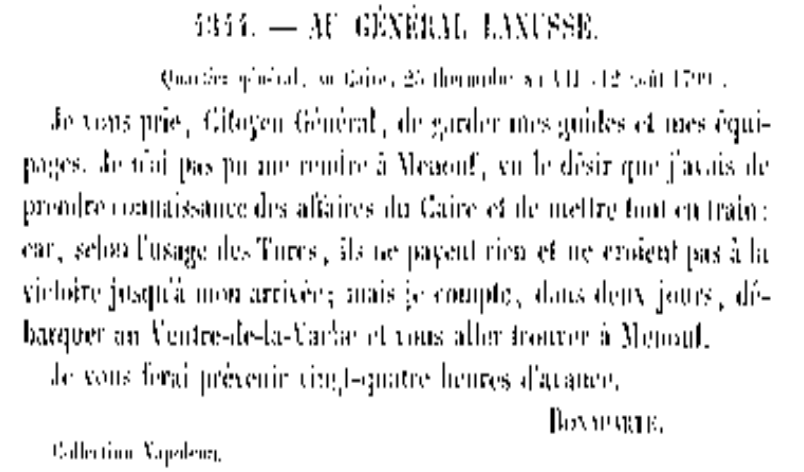

5354. — AU GÉNÉRAL LANUSSE.

Quartier général, au Caire, 25 thermidor an VII (12 août 1799).

Je vous prie, Citoyen Général, de garder mes guides et mes équipages. Je n'ai pas pu me rendre à Menouf, vu le désir que j'avais de prendre connaissance des affaires du Caire et de mettre tout en train: car, selon l'usage des Turcs, ils ne paient rien et ne croient pas à la victoire jusqu'à mon arrivée; mais je compte, dans deux jours, débarquer au Ventre-de-la-Vache et vous aller trouver à Menouf.

Je vous ferai prévenir vingt-quatre heures d'avance.

BONAPARTE.

Collection Napoléon.

وثيقة تبين معاناة الحملة الفرنسية في منوف وعدم وصول كل التجهيزات والمعدات

3380. — ORDRE DU JOUR.

Quartier général, au Caire, 3 vendémiaire an VII (24 septembre 1798).

Une partie des Arabes de la province de Charqyeh, renforcés par les Arabes de Derne et de tous ceux du lac Menzaleh, sous la conduite de Hassan-Toubàr, ont attaqué, à minuit de la nuit du 29 au 30 fructidor, la garnison de Damiette. On a bientôt été sous les armes et on a repoussé l'ennemi de tous côtés.

Le 30, le village d'El-Choa'rah, situé à une portée de canon de Damiette, se révolta, et tous les Arabes s'y réunirent et en firent leur quartier général. Les 1er et 2e complémentaires, ils reçurent beaucoup de renforts par le lac Menzaleh.

La garnison de Damiette reçut également un renfort d'un bataillon de la 25e. Le général Vial se décida, le 4e complémentaire, à la pointe du jour, d'attaquer le village d'El-Choa'rah. Le général Andréossy prit le commandement de la flottille et vint débarquer au delà du village d'El-Choa'rah. L'ennemi était rangé sur un seul rang et occupait tout l'espace depuis le Nil jusqu'au lac Menzaleh, au nombre de plus de 10,000 hommes. Le général Vial envoya une compagnie de grenadiers de la 25e pour attaquer la droite de l'ennemi et lui couper la retraite par le lac Menzaleh, dans le temps qu'il attaquait de front, au pas de charge, cette nuée d'ennemis, qui fut culbutée dans l'inondation du Nil et dans le lac.

Le village d'El-Choa'rah fut emporté et livré aux flammes. Il y a plus de 1,500 Arabes tués ou noyés. On leur a pris deux très-belles pièces de canon de bronze de 4, et trois drapeaux, qui ont été pris par les citoyens Jaussoux, grenadier dans la 2e compagnie de la 25e demi-brigade de bataille, Pampeno, dragon de la 4e compagnie du 18e régiment, Lefort, sergent au 3e bataillon de la 13e demi-brigade. Nous n'avons eu qu'un homme de tué et quatre de blessés.

Ainsi, 10,000 ou 12,000 Arabes ont été attaqués et battus par 400 ou 500 Français.

De nombreuses colonnes mobiles parcourent tous les villages des provinces de Damiette et de Mansourah, pour punir sévèrement les chefs des révoltés, et tirer une vengeance exemplaire de ces malheureux, qui ont été égarés par les écrits et les fausses promesses d'Ibrahim-Bey.

Par ordre du général en chef.

Dépôt de la guerre.

وثيقة توضح هجوم حسن طوبار على دمياط وهزيمته في موقعة الشعراء.

3376. — AU GÉNÉRAL VIAL.

Quartier général, au Caire, 3 vendémiaire an VII (24 septembre 1798).

L'attaque que vous avez faite, Citoyen Général, du village d'El-Choa'rah; fait autant d'honneur à vous qu'aux troupes.

Toute la division du général Dugua doit se trouver dans ce moment-ci à Damiette. Pour le mettre à même d'envoyer des forces partout où il en serait besoin, je lui ai donné le commandement des deux provinces [1]; vous conserverez cependant le détail de l'administration de celle de Damiette.

Il me tarde d'apprendre que nous occupons le village d'El-Menzaleh, que nous avons cinq ou six djermes armées sur le lac et que nous avons pris ou tué Hassan-Toubâr. J'écris fort en détail là-dessus au général Dugua.

Faites pousser vigoureusement les fortifications et les batteries du Boghâz, et protégez de tous vos moyens le départ du général Andréossy. Il faudrait avoir sur le lac Menzaleh deux ou trois petites pièces de canon, et, à côté, ramasser le plus grand nombre de bateaux possible.

BONAPARTE.

Comm. par M. Laverdet.

وثيقة من نابليون إلى فيال بخصوص معركة الشعراء.

3374. — AU GÉNÉRAL DUGUA.

Quartier général, au Caire, 3 vendémiaire an VII (24 septembre 1798).

Je reçois, Citoyen Général, votre lettre du 1er vendémiaire; je suis fâché que vous n'y ayez pas joint le rapport du général Damas. Dans des circonstances comme celles-ci, le moindre retard peut être très-préjudiciable. Je suis peu satisfait de ce que le général Damas ne soit point allé à El-Menzaleh; il devait sentir combien cela était essentiel. Toute cette attaque de Damiette n'eût point eu lieu, si vous eussiez, conformément à mon ordre du 17 et du 20 fructidor, fait reconnaître les canaux et pris des mesures pour soumettre la province.

Vous aurez vu par ma lettre d'hier différentes mesures que je vous ai prescrites concernant le désarmement et pour prendre des otages dans les différents villages révoltés.

Faites passer dans le lac Menzaleh quatre ou cinq djermes armées de canons que vous avez à Damiette, et, si vous pouvez, une chaloupe canonnière; enfin, armez le plus de bateaux que vous pourrez, pour être entièrement maître du lac.

Tâchez d'avoir Hassan-Toubar dans vos mains, et, pour cela faire, employez la ruse, s'il le faut.

Sur-le-champ, faites partir une forte colonne pour s'emparer d'El-Menzaleh; faites-en partir une autre pour accompagner le général Andréossy et s'emparer de toutes les îles du lac. J'imagine que vous aurez donné une leçon sévère au gros village de Myt-el-Khaouly. Mon intention est qu'on fasse tout ce qui est nécessaire pour être souverainement maître du lac Menzaleh, et, dussiez-vous y faire marcher toute votre division, il faut que le général Andréossy arrive à Peluse.

Je vous ai écrit, dans une de mes lettres, de faire une proclamation; faites-la répandre avec profusion dans le pays.

Il faut faire des exemples sévères; et, comme votre division ne peut pas être destinée à rester dans les provinces de Damiette et de Mansourah, il faut profiter du moment pour les soumettre entièrement; pour cela, il faut le désarmement, des têtes coupées et des otages.

BONAPARTE.

Collection Napoléon.

وثيقة من نابليون إلى دوجا يخبره بضرورة الهجوم على حسن طوبار بالمنزلة.

3385. — AU GÉNÉRAL DUGUA, A DAMIETTE.

Quartier général, au Caire, 5 vendémiaire an VII (26 septembre 1798).

Soit par terre, soit par le canal, il faut absolument, Citoyen Général, parvenir à El-Menzaleh. Faites-y marcher votre avant-garde en la renforçant de ce que vous jugerez nécessaire.

Je désire qu'elle prenne position à El-Menzaleh, en réunissant la quantité de bateaux nécessaires pour pouvoir se porter rapidement soit à Damiette, soit à Sâlheyeh, soit à Mansourah. Essayez de prendre par la ruse Hassan-Toubâr, et, si jamais vous le tenez, envoyez-le-moi au Caire. Désarmez le plus que vous pourrez; n'écoutez point ce qu'ils pourraient vous dire, que, par le désarmement, vous les exposez aux incursions des Arabes; tous ces gens-là s'entendent. Surtout, il faut que le village de Myt-el-Khaouly vous fournisse au moins 100 armes et des pièces de canon. Ils les ont cachées, mais je suis sûr qu'ils en ont. Concertez-vous avec le général Vial pour faire désarmer Damiette, et faites arrêter tous les hommes suspects.

Prenez des otages; exigez que les villages vous remettent leurs fusils; tâchez d'avoir leurs canons, et faites entrer dans le lac Menzaleh des djermes armées, ou armez leurs bateaux.

Envoyez un officier du génie à El-Menzaleh, afin de bien établir sa position par rapport à Damiette, à Mansourah et surtout à Sâlheyeh.

Faites faire des reconnaissances le long de la mer, à droite et à gauche, jusqu'au cap Bourlos, d'un côté, et aussi loin que vous pourrez, de l'autre.

Ordonnez aussi que la troupe soit casernée.

Je vous ai envoyé une djerme armée, *la Carniole;* vous devez en avoir deux à Damiette; je vous ai envoyé deux avisos; il y avait une chaloupe canonnière : cela vous fait six bâtiments armés.

BONAPARTE.

Dépôt de la guerre.

وثيقة من نابليون إلى دوجا يحذره من خطورة حسن طوبار وسرعة الهجوم على المنزلة

3623. — SAUVEGARDE ACCORDÉE A NICOLAS PAPADOPOULO.

Quartier général, au Caire, 25 brumaire an VII (15 novembre 1798).

Les postes de l'armée française en Égypte laisseront librement passer Nicolas Papadopoulo, qui s'est distingué à Damiette lorsque cette ville a été attaquée par les Arabes d'Hassan-Toubâr, et qui a été, pendant sept ans, amiral de la flottille de Mourad-Bey.

Les postes de l'armée française laisseront également passer les matelots grecs qui abandonneraient la flottille de Mourad-Bey. Le général en chef accorde amnistie et promet récompense à ces matelots.

Le général en chef promet également à Nicolas Papadopoulo 1,000 talari par chaloupe canonnière armée et appartenant aux Mameluks qu'il remettrait à l'armée française.

Par ordre du général en chef.

Dépôt de la guerre.

وثيقة تبين الحماية واللجوء المعطاه لنيكولاس بابادوبولو اليوناني نظراً لما قدمه من خدمات للفرنسين أثناء ما هوجمت دمياط من قبل حسن طوبار ورجاله.